

سوزانا كيسن
مُذكَّرات
المُبعثَرة
ترجمة رزان بنت إلياس
الأدب

المُبعثَرة

سوازنا كيسين

ترجمة

رزان بنت إلياس

قرطاس الأدب

مقدمة المترجمة

في عام 1967 ، أُدخلت سوزانا كيسن إلى مستشفى ميكلين الخاص للطب النفسي في بيلمونت بولاية ماساتشوستس ثمانية عشر شهراً بعد تشخيصها باضطراب الشخصية الحديّة عقب محاولتها الانتحار بتناول عدد مفرط من الحبوب .

تسرد كيسن لنا في هذا الكتاب ما مرت به خلال الوقت الذي قضته في المستشفى ، والوقت الذي تلا خروجها منه ، واصفةً انطباعاتها ومشاعرها تجاه كل شيء : مرضها ، المستشفى وموظفيه ، نزيلات المستشفى ، نظرة المجتمع للمرضى النفسيين .

سوزانا كيسن

وُلدت سوزانا كيسن في 11 تشرين الثاني 1948 ، وترعرعت في كامبريدج ، ماساتشوستس . والدها هو عالم الاقتصاد كارل كيسن (وُلد عام 1920) ، وهو بروفيسور سابق في جامعة **MIT** ، ونائب مستشار الأمن القومي للرئيس جون ف . كينيدي .

في عام 1967 ، ارتادت سوزانا مدرسة كومونويلث في بوسطن قبل أن تُرسَل إلى مستشفى ميكلين حيث خضعت لعلاج نفسي للاكتئاب

ثمانية عشر شهراً بعد تشخيصها باضطراب الشخصية الحدية . نُشرت روايتها الأولى «آيسا ، كما عرفتُه» عام 1987 ، تلتها رواية ثانية في عام 1990 بعنوان «بعيدٌ عن الوطن» . في عام 1993 ، نُشرت المذكرات التي أشهرتها ، «المبعثرة» ، التي سردت فيها تجربتها في مستشفى ميكلين ، وحُوِّلت لفيلم في عام 1999 . كل كتبها تنبع من تجاربها الشخصية بدرجات متفاوتة . نُشِرت مذكراتها بعنوان «الكاميرا التي أعطتني إياها أمي» في عام 2001 .

يسألني الناس : ما الذي أدخلكِ إلى هناك؟ إن ما يريدون معرفته حقًا هو احتمالية أن ينتهي بهم المطاف هناك أيضًا . لا أستطيع أن أجيب عن السؤال الحقيقي ، كل ما بوسعي إخبارهم به هو أن الأمر سهل .

ومن السهل أن ينزلق المرء إلى عالم موازٍ فثمة الكثير منها : عوالم المجانين ، والمجرمين ، والمعاقين ، والمحتضرين ، وربما الأموات أيضًا . هذه العوالم توجد بجانب هذا العالم وتشبهه ، لكنها ليست فيه .

دخلت شريكة غرفتي جورجينا إلى هنا سريعًا وكُلِّيًا خلال سنتها الثالثة في كلية فاسار . كانت تشاهد فيلمًا في السينما حين عصفت برأسها موجة مد وجزر من السواد ، انمحى العالم بأكمله بضع دقائق ، فأدركت بأنها جُنَّت . نظرت حولها في السينما لترى إن كان الأمر ذاته قد حدث للجميع ، لكن الجميع كانوا مستغرقين في مشاهدة الفيلم . هرعت إلى الخارج ؛ لأن الظلمة في السينما كانت أشد من أن تُحتمل حين تُضاف إلى الظلمة التي في رأسها .

سألتها : «وبعد ذلك؟» .

قالت : «الكثير من الظلمة» .

لكن أغلب الناس يعبرون تدريجيًا مُحدثين سلسلة من الثقوب في الغشاء الذي يربط بين عالمنا والعالم الموازي إلى أن تتشكل لهم فتحة ، ومن يمكنه مقاومة إغراء فتحة؟

في العالم الموازي ، قوانين الفيزياء معطلة ، فما يرتفع لا ينزل بالضرورة ، ولا يظل الجسم الساكن في حالته الساكنة ، ولا يمكن الاعتماد على كل ردة فعل في إحداث ردة فعل مساوية له في المقدار ومعاكسة في الاتجاه . والزمن أيضًا يختلف فقد يجري في حلقات مفرغة ، أو ينساب للوراء ، أو يقفز في الأرجاء من الحاضر إلى الماضي . وترتيب الجزيئات نفسه قابل للتغيير : فيمكن للطاولات أن تكون ساعاتٍ ، أو أوجهًا ، أو ورودًا .

لكن هذه حقائق بوسعك أن تكتشفها لاحقًا .

وللعالم الموازي ملمح آخر غريب ، وهو أنه مع كونه غير مرئي من هذا الجانب ، فما أن تلجه حتى يمكنك بسهولة أن تبصر العالم الذي جئتَ منه . أحيانًا يبدو العالم الذي جئتَ منه ضخمًا وخَطِرًا ، يرتعش ككومة ضخمة من الهلام ، في حين يبدو في أوقات أخرى مُصَغَّرًا وجذَّابًا ، يدور ويلمع في مداره ، وفي كلا الحالين ، لا يمكن تجاهله .

كل نافذة في ألكتراز تطل على سانفرانسيسكو .

سـائـق الأجـرة

قال الطبيب : «لديكِ بثرة» رجوتُ ألا يلاحظها أحد . تابع كلامه قائلاً : «كنتِ تحاولين إزالتها» حين استيقظتُ في ذلك الصباح- مبكرًا كي أصل لهذا الموعد- بلغت البثرة مبلغًا من التلهف تترجاني معه أن أزيلها ، وتتوق لأن يُطلق سراحها . شعرتُ بشيء من الإنجاز حين ضغطتُ عليها حتى جرى الدم ، مما حررها من سطحها المقبب الأبيض الصغير : كنتُ لأفعل كل ما يسعني فعله لهذه البثرة .

قال الطبيب : «كنتِ تنتقدين نفسكِ» .

أومأتُ . كان سيستمر بالحديث عن الأمر حتى أوافقه ، لذا أومأتُ .

سألني : «هل لديكِ حبيب؟» .

أومأتُ لهذا السؤال أيضًا .

«أبينكِ وبين حبيبكِ مشاكل؟» لم يكن سؤالاً حقًا ؛ فقد كان يومئ لي بالفعل . أعاد قائلاً : «تنتقدين نفسكِ» ثم نهض من خلف مقعده واندفع نحوي . كان رجلاً مشدود الشحم ، ومشدود البطن ، وداكن البشرة .

صرَّح قائلاً : «أنتِ بحاجة إلى الراحة» .

كنتُ فعلاً بحاجة للراحة لا سيما وأني قد نهضتُ مبكرًا لرؤية هذا الطبيب الذي كان يعيش خارجًا في الضواحي . غيرتُ القطار مرتين ،

وعلي أن أعود من حيث أتيتُ لأصل إلى مقر عملي ؛ إن مجرد التفكير في ذلك جعلني متعبة .

«ألا تظنين» ما زال واقفًا أمامي . «ألا تظنين أنكِ بحاجة للراحة؟»

قلتُ : «بلى» .

مشى إلى الغرفة المجاورة ، حيث يمكنني سماعه يتحدث عبر الهاتف .

فكرتُ كثيراً بالدقائق العشر التالية . . . دقائقي العشر الأخيرة . شعرتُ برغبة ، ذات مرة ، في أن أنهض وأغادر عبر الباب الذي دخلتُ منه ، وأعبر العديد من الأحياء نحو محطة الترام ، وأنتظر القطار الذي سيعيدني إلى حبيبي المزعج وعملي في متجر المطابخ ، لكنني كنتُ منهكة .

عاد إلى الغرفة يمشي الخيلاء ، متطفلاً ، راضياً عن نفسه .

قال : «عندي لكِ مبيت ، ستكون بمثابة استراحة . بضعة أسابيع فحسب ، حسنًا؟» بدا وكأنه يحاول استمالتي ، أو يتوسل إلي ، وكنتُ خائفة .

قلتُ : «سأذهب يوم الجمعة» كان ذلك يوم الثلاثاء ؛ ربما بحلول الجمعة لن أرغب بالذهاب .

اندفع نحوي ببطنه ، وقال : «لا ، اذهبي الآن» .

رأيتُ بأنَّ تصرفه غير منطقي ، فقلتُ : «لديَّ موعد غداء» .

قال : «دعكِ من الأمر ، لن تذهبي إلى لغداء ، بل إلى المستشفى» بدا مبتهجًا بالنصر .

كان الجو هادئًا جداً في الضواحي قبل الثامنة صباحًا ، وليس عند أي منا شيء إضافي لقوله . سمعتُ صوت سيارة الأجرة وهي تركن عند مدخل الطبيب .

جذبني من كوعي -قرصني بإصبعيه القويتين- وقادني خارجًا . محكمًا قبضته على ذراعي ، فتح باب سيارة الأجرة الخلفي ودفعني داخلها . كان رأسه الكبير معي في المقعد الخلفي للحظة . ثم أغلق الباب .

أنزل السائق نافذته لنصفها .

«إلى أين؟»

بلا معطف في الصباح البارد ، واقفًا بثبات على ساقيه القويتين فوق مدخله ، رفع الطبيب ذراعًا واحدة ليشير إلي .

قال : «خذها إلى مكلين ، ولا تسمح لها بالخروج حتى تصل إلى هناك» .

أرحتُ رأسي على المقعد وأغلقتُ عيني ، كنتُ سعيدة لركوبي سيارة أجرة بدلاً من انتظاري للقطار .

علـم أسـبـاب الأمـراض

الشخص (اختر إجابة) :

١- في رحلة محفوفة بالمخاطر يمكننا أن نعرف المزيد عنها حين يعود أو تعود .

٢- مُتَلَبَّس من قِبل (اختر إجابة) :

أ) الآلهة .

ب) إله (بعبارة أخرى : نبي) .

ج) أرواح خبيثة أو شياطين .

هـ) الشيطان .

٣- ساحرة .

٤- مسحور (نوع آخر من الخيار ٢) .

٥- سيئ ، ويجب أن يُعزَل ويُعاقَب .

٦- مريض ، وينبغي أن يُعزَل ويُعالج عبر (اختر إجابة) :

أ) تليين البطن والعَلَقات .

ب) إزالة الرحم إن كان المريض يملك رحماً .

ج) الصدمة الكهربائية للدماغ .

هـ) ملاءات باردة تُلف بإحكام على المريض .

و) الثورازين أو الستيلازين .

٧- مريض ، ويجب عليه أن يمضي السنوات السبع القادمة يتحدث عن مرضه .

٨- ضحية قلة تسامح المجتمع مع السلوك المنحرف .

٩- عاقل في عالم مجنون .

١٠- في رحلة محفوفة بالمخاطر قد لا يعود أو تعود منها أبداً .

نـار

أشعلت فتاة منا نفسها باستخدام البنزين ، أتساءل كيف حصلت عليه ، إذ إنها كانت حينها صغيرة على القيادة . هل ذهبت لمرآب جيرانهم لتخبرهم أن البنزين قد نفد من سيارة والدها؟ لم يكن بوسعي أن أنظر إليها دون أن تراودني هذه التساؤلات .

أحسب أن البنزين استقر بترقوتها ، مشكِّلاً هناك برك سباحة بجانب كتفيها ، لأن أشد ندوبها على عنقها وخديها . كانت ندوبها حوافًا سميكة ، يتقلب لونها بين الوردي الفاتح والأبيض ، على هيئة خطوط من أعلى رقبتها ، وقد كانت صلبة جداً وواسعة لدرجة أنها لم تقوَ على لف رأسها ، وعليها أن تدير جذعها بأكمله إن أرادت أن ترى شخصًا يقف بجانبها .

النسيج النُّدبي لا يملك سمة مميزة ، فهو ليس كالجلد ، لا يُظهر العمر ، أو المرض ، أو الشحوب ، أو الاسمرار ، وليس له مسام ، أو شعر ، أو تجاعيد ، إنه مثل غطاء الأريكة ؛ يحمي ويخفي ما تحته ، لهذا السبب ننميه لأن عندنا ما نخفيه .

كان اسمها بولي ، لا بد من أن هذا الاسم بدا لها سخيفًا في الأيام –أو الشهور– التي كانت تخطط فيها لحرق نفسها ، لكنه ناسبها جداً في حياتها الغطاء أريكية الكفاحية . لم تكن قط غير سعيدة ، بل طيبة

ومواسية لأولئك الذين كانوا غير سعداء . لم تَشْكُ قط ، ولديها وقت دائما للاستماع لشكوى غيرها من الناس . كانت خالية من العيوب وهي مرتدية حزامها الوردي الأبيض الضيق المحكم . أيًا كان الذي دفعها وهمس في أذنها التي كانت مثالية ذات يوم ، ونَدبِة الآن ، قائلاً : «موتي!» فقد أماتته حرقًا .

لماذا فعلت ذلك؟ لم يعرف أحد السبب . لم يجرؤ أحد على سؤالها . لأنه . . . يا لها من شَجاعة! من عندها الشجاعة لتحرق نفسها؟ عشرون قرص أسبرين ، شق صغير بجانب عروق الذراع ، ربما حتى الوقوف على السطح نصف ساعة سيئة : كلنا مررنا بهذه الأمور ، وبأمور أخطر لحد ما ، كوضع مسدس داخل فمك . لكنك تضعه هناك ، وتتذوقه ، فتلفيه باردًا وشاحمًا . تضع إصبعك على الزناد ، فتكتشف أن عالمًا بأكمله يقع بين هذه اللحظة واللحظة التي كنت تخطط لها حين ستضغط على الزناد . يهزمك ذلك العالم فتعيد المسدس إلى الدرج . عليك أن تجد طريقة أخرى .

بماذا أحست في تلك اللحظة؟ في اللحظة التي أشعلت فيها الثقاب . أجربَّتَ قبلها السطوح ، والمسدسات ، والأسبرين؟ أم كان محض إلهام؟

واتاني إلهام مرة ، حين استيقظتُ ذات صباح وعلمتُ بأن علي اليوم أن أبتلع خمسين قرص أسبرين . كانت تلك مهمتي : عملي الذي علي إتمامه ذلك اليوم . صففتُها على مكتبي ، وتناولتُها قرصًا قرصًا وأنا أَعُدها . لكنه ليس مثل ما فعلته هي . كان بوسعي أن أتوقف عند القرص العاشر ،

أو الثلاثين . ويمكن أن أفعل ما فعلتُه ، وهو ذهابي إلى الشارع حيث أغمي علي . خمسون قرص أسبرين كمية كبيرة من الأسبرين ، لكن الذهاب للشارع والإغماء لهو مثل إعادة المسدس للدرج .

أشعلتِ الثقاب .

أين؟ في المرآب في المنزل ، حيث لم تكن لتحرق أي شيء آخر؟ خارجًا في حقل؟ في صالة المدرسة الرياضية؟ في مسبح خال؟

وجدها أحدهم ، لكن استغرقه ذلك وقتًا .

من قد يقبِّل شخصًا مثلها ، شخصًا بلا جلد؟

كان عمرها ثمانية عشر سنة قبل أن تخطر ببالها تلك الفكرة . قضت سنة معنا . كانت الأخريات يثرن ، ويصرخن ، وينكمشن خوفًا ، ويبكين ، في حين تشاهدهن بولي وتبتسم . تجلس بجانب المذعورات ، ويهدّئهن حضورها . لم تكن ابتسامتها ابتسامة لؤم ، بل ابتسامة تفهم . الحياة فظيعة ، تعرف ذلك . لكن ابتسامتها لمَّحت بأنها قد أخرجت كل ذلك الألم حرقًا . ابتسامتها متعالية قليلاً : لن نمتلك الشجاعة لإخراج آلامنا حرقًا ، لكنها أدركت ذلك أيضا . كان الجميع مختلفين ، وقد بذلت الأخريات ما بوسعهن فعله فحسب .

ذات صباح بكت إحداهن ، لكن الصباحات غالبًا ما كانت صاخبة : شجارات حول النهوض في الوقت المحدد ، وشكاوى من الكوابيس . أما

بولي فهادئة جداً ، حضورها غير ملحوظ قط ؛ لدرجة أننا لم نلحظ أنها لم تكن معنا أثناء الفطور . بعد الفطور ، ما زال بوسعنا سماع البكاء .

«من التي تبكي؟» .

لم يعرف أحد .

وأثناء الغداء ، ما زال البكاء مستمراً .

قالت ليسا التي تعرف كلَّ شيء : «إنَّها بولي» .

«لماذا؟» .

لكن حتى ليسا لم تكن تعرف لماذا .

في الغسق ، استحال البكاء صراخًا . إن الغسق وقت خَطِر . في البداية صرخت قائلة : «آااااه!» و«إيييييه!» ثم بدأت تصرخ بكلمات .

«وجهي! وجهي! وجهي!»

استطعنا سماع أصوات أخرى تُسكتها ، وتهمهم لها بكلمات تواسيها ، لكنها استمرت تصرخ بكلمتها حتى وقت متأخر من الليل .

قالت ليسا : «حسنًا ، توقعتُ حدوث هذا بعض الوقت» .

ثم ، أظن بأننا أدركنا جميعنا مدى حماقتنا .

قد نخرج من هنا ذات يوم ، لكنها محبوسة في ذلك الجسد إلى الأبد .

حـريـة

هربت ليسا مجدداً ، فحزنَّا لأنها تبقي معنوياتنا مرتفعة . كانت مُضحكة . ليسا! لا يسعني التفكير بها دون أن أبتسم ، حتى الآن .

أسوأ ما في الأمر أنه دائماً ما يُقبض عليها وتُعاد إلى هنا ، متسخة ، بعينين واسعتين أبصرتا الحرية . شتمت من قبضوا عليها ، وحتى الحازمات اللاتي عملن هنا وقتا طويلا لا يسعهن سوى الضحك على الألقاب التي تختلقها .

«مهبل الجبنة!» ولقبها المفضل الآخر : «أيتها الخفاشة المنفصمة!» .

عادة ما يجدونها في غضون يوم ، فلا يمكنها أن تذهب بعيداً مشيًا بلا مال . لكن يبدو أن الحظ قد حالفها هذه المرة . في اليوم الثالث سمعتُ إحداهن في غرفة التمريض تقول «ب . ل . و .» على الهاتف : بلاغ لجميع الوحدات .

لن يصعب تحديد هوية ليسا فادراً ما تأكل ولا تنام قط ، لذا كانت نحيلة ومصفرة ، وهو ما تكون عليه هيئات الذين لا يأكلون ، ولديها انتفاخات ضخمة تحت عينيها . شعرها طويل ، وغامق ، وباهت . تربطه بمشبك فضي ، وأصابعها أطول أصابع رأيتُها قط .

هذه المرَّة ، حين أعادوها ، كانوا تقريبًا غاضبين بقدر غضبها . أمسك رجلان ضخمان بذراعيها ، وأمسك رجل ثالث بشعرها وشدَّه حتى جحظت عينا ليسا . كان الجميع هادئين ، بما فيهم ليسا . اقتادوها إلى نهاية الممر ، إلى غرفة العزلة ، ونحن نراقب .

راقبنا الكثير من الأحداث .

شاهدنا سينثيا تعود باكية بعد العلاج بالصدمة الكهربائية مرة كل أسبوع . شاهدنا بولي ترتجف بعد أن تُغطى بملاءات باردة جداً . لكن أحد أسوأ الأمور التي شاهدناها كان خروج ليسا من غرفة العزلة بعد يومين .

في البداية ، قصوا أظافرها حتى عِراقها . كانت لها أظافر جميلة اعتنت بها جيداً ، صقلتها ، وشكَّلتها ، ولمَّعتها . قالوا بأنَّ أظافرها «حادَّة» .

سلبوها حزامها . دائما ما ارتدت ليسا حزامًا مخرَّزًا رخيصًا ، ذلك النوع من الأحزمة الذي يصنعه الهنود في محمياتهم . أخضر اللون ، عليه مثلثات حمر ، مُلكُ أخيها جوناس ، الفرد الوحيد من عائلتها الذي ما زال يتواصل معها . أمها وأبوها لا يزورانها لأنها معتلة اجتماعيًا ، أو هذا ما قالته ليسا . سلبوا منها الحزام لكيلا تتمكن من شنق نفسها .

لم يستوعبوا بأن ليسا لا يمكن أن تشنق نفسها أبداً .

أخرجوها من غرفة العزلة ، وأعادوا لها حزامها ، وأخذت أظافرها تنمو مجدداً ، لكن ليسا لم تعد . جلست فحسب ، وشاهدت التلفاز مع أسوئنا .

ليسا لم تشاهد التلفاز قط ، بل لا تضمر غير الاحتقار لمن يفعلن ذلك . تطل برأسها على غرفة التلفاز وتصيح قائلة : «إنها تفاهة! أنتن أساساً كالروبوتات ، إنه يجعل حالكن أسوأ» كانت أحياناً تطفئ التلفاز وتقف أمامه ، متحدية إحدانا أن تشغله . لكن معظم جمهور التلفاز من المكتئبات والمصابات بالجامود اللاتي ينفرن من الحركة . بعد خمس دقائق ، وهو الوقت الذي يقارب قدرتها على البقاء واقفة ، تنصرف ليسا في مهمة أخرى ، وحين تكون مسؤولة الفحوصات بالجوار ، فإنها تعيد تشغيل التلفاز مجدداً .

بما أن ليسا لم تنم خلال السنتين اللتين قضتهما معنا ، يئست الممرضات من إخبارها بأن تخلد للنوم . بدلاً من ذلك ، كان لها كرسي خاص في الممر ، تماماً كالموظفات الليليات ، حيث تجلس وتعتني بأظافرها . كانت تعد شراب كاكاو مذهلاً ، وفي الثالثة صباحاً تعد شراب الكاكاو للموظفات الليليات ، ولمن كان مستيقظاً غيرهن . ليسا أهدأ أثناء الليل .

سألتُها مرة : «ليسا ، لماذا لا تندفعين في الأنحاء وتصرخين أثناء الليل؟» .

فأجابتني قائلة : «أنا أيضاً أحتاج إلى الراحة . فقط لأني لا أنام لا يعني أني لا أرتاح» .

كانت ليسا تعرف دائمًا ما تحتاجه . تقول : «أحتاج إجازة من هذا المكان» ثم تهرب . وحين تعود ، نسألها كيف الوضع في الخارج .

فتجيبنا قائلة : «إنه عالم شرير» . كانت في الغالب سعيدة كفاية لعودتها . «ما من أحد يرعاكِ هناك» .

أما الآن فما عادت تقول شيئًا ، بل تقضي جلَّ وقتها في غرفة التلفاز . شاهدت الصلوات ، والشاشات الملونة ، وساعات من البرامج الحوارية التي تعرض في وقت متأخر من الليل ، وأخبار الصباح الباكر . كان كرسيها في الممر شاغرًا ، ولم يحظَ أحد بشراب الكاكاو .

سألتُ مسؤولة الفحوصات : «أتعطون ليسا شيئًا؟» .

«تعلمين بأنه لا يمكننا مناقشة العلاجات مع المرضى» .

سألتُ رئيسة الممرضات . أنا أعرفها منذ مدة ، قبل أن تصبحَ رئيسة الممرضات .

لكنها تصرفت كما لو أنها دائمًا رئيسة الممرضات . «لا يمكننا مناقشة العلاجات ، تعلمين ذلك» .

قالت جورجينا : «لم تتكبدين عناء سؤالهن؟ إنها ثملة جداً ؛ بالطبع هم يعطونها شيئا» .

لكن سينثيا خالفتها الرأي قائلة : «لا تزالُ تمشي باعتدال» .

قالت بولي : «أنا لا أمشي باعتدال» . لم تكن تمشي باعتدال ، بل تمشي وذراعيها ممدودتين أمامها ، ويداها المبيضتان المحمرتان تتدلى من معصميها ، وتجر قدمها على الأرضية . لم تنفع الكمادات الباردة ، فما تزال تصرخ طوال الليل حتى يهدؤونها بشيء ما .

قلتُ : «استغرق الأمر بعض الوقت ، كنتِ تمشين باعتدال حين بدأوا به» .

قالت بولي : «والآن لا أمشي باعتدال» وأخذت تنظر ليديها .

سألتُ ليسا إن كانوا يعطونها شيئًا ، لكنها أبت أن تنظر إلي .

عشنا كلنا على تلك الحال شهرا أو شهرين ، ليسا والمصابات بالجامود في غرفة التلفاز ، وبولي تسير كجثة بمحركات ، وسينثيا تبكي بعد العلاج بالصدمة الكهربائية (شرحت لي الأمر قائلة : «أنا لست حزينة ، لكن لا يسعني التوقف عن البكاء») ، أنا وجورجينا في جناحنا المشترك . كنا نُعد أصحَّ مريضتين .

حين أقبل الربيع ، بدأت ليسا تقضي وقتًا أكثر بقليل خارج غرفة التلفاز . لأكون دقيقة ، فقد قضته في الحمام ، لكنه كان تغييرًا في الأقل .

سألتُ مسؤولة الفحوصات : «ما الذي تفعله في الحمام؟» .

كانت مسؤولة جديدة . «أعليَّ أن أفتح أبواب الحمَّامات أيضًا؟» .

فعلتُ ما كنا نفعله غالبًا مع النَّاس الجدد . «إحداهن قد تشنق نفسها بالداخل في غضون دقيقة! أين تخالين نفسكِ على أي حال؟ في مدرسة داخلية؟» ثم قربتُ وجهي من وجهها . لم يكن يروق لهن ذلك ، أعني لمسنا .

لاحظتُ بأنَّ ليسا تذهب لحمام مختلف كل مرة . ثمة أربعة حمامات ، وهي تدور بينها يوميًا . لم تبدُ بخير . كان حزامها يتدلى منها وبدت أشد اصفرارًا من المعتاد .

قلتُ لجورجينا : «ربما هي مصابة بالزحار» لكن جورجينا ظلت على رأيها بأنها ثملة جدًا فحسب .

ذات صباح في شهر أيار ، كنا نتناول الفطور حين سمعنا صوت باب يُغلق بعنف ، ثم ظهرت ليسا في المطبخ .

قالت : «وداعًا لذلك التلفاز» وصبت لنفسها كوبًا كبيرًا من القهوة ، كما اعتادت أن تفعل في الصباحات ، وجلست معنا حول الطاولة . ابتسمت لنا ، وابتسمنا لها ، ثم قالت : «ترقبن ما سيحدث» .

سمعنا أقدامًا تركض ، وأصواتًا تقول عبارات مثل : «رباه! ما هذا؟» و«رباه! كيف حدث هذا؟» ثم جاءت رئيسة الممرضات للمطبخ .

قالت لليسا : «أنتِ فعلتِ هذا» .

ذهبنا لنرى ما الذي فعلته .

لقد لفت بورق الحمام كل الأثاث ، والذي تجلس على بعضه المصابات بالجامود ، والتلفاز ، ونظام الرش . ياردات وياردات منه حامت ، وتدلت ، وتكتلت ، وغطت كل شيء ، في كل مكان . كان منظراً مذهلاً .

قلتُ لجورجينا : «لم تكن ثملة جداً ، بل كانت تخطط» .

حظينا بصيف طيب ، وأخبرتنا ليسا بالكثير من القصص حول ما فعلته في الأيام الثلاث التي كانت فيها حرة .

جاء أحدهم لزيارتي ذات يوم . كنتُ في غرفة التلفاز أشاهد ليسا وهي تشاهد التلفاز حين دخلت ممرضة إلى الغرفة لتبلغني بذلك .

قالت : «جاء أحدهم لزيارتكِ ، إنه رجل» .

لم يكن الزائر حبيبي المزعج . أولاً ، هو لم يعد حبيبي ، فكيف يمكن أن يكون لسجينة حبيب؟ وبأيَّة حال ، لم يكن ليقوى على القدوم إلى هنا فقد اتضح بأنَّ أمه في مستشفى للأمراض النفسية أيضًا ، ولم يكن يتحمل أن يُذَكِّره أحدٌ بذلك .

لم يَكُن الزائر والدي ، فقد كان مشغولاً .

وليس مدرِّس اللغة الإنجليزيَّة الذي درسني في المرحلة الثانوية ، لقد طُرِد وانتقل إلى كارولاينا الشماليَّة .

ذهبتُ لأرى من الزائر .

يقف عند نافذة في غرفة المعيشة ، ينظر للخارج : طويلٌ كالزرافة ، ذو كتفان أكاديميَّان متهدِّلان ، رسغاه يبرزان من سترته ، وشعره أبيضُ ينبثق من رأسه كأنَّه حلقة نور . التفتَ حين سمعني أدخل للغرفة .

كان جيم واتسون . أسعدتني رؤيته ، لأنَّه ، في الخمسينيات ، قد اكتشف سرَّ الحياة ، والآن ، في الأرجح ، قد يطلعني عليه .

قلتُ : «جيم!» .

سار نحوي على مهل . كان يسير على مهل ، ويترنح ، ويفقد تركيزه حين يفترض به مخاطبة الناس ، ودائما ما أُعجبتُ به لهذا السبب .

أخبرني قائلاً : «تبدين بخير» .

سألتُه قائلة : «ما الذي كنتُ تتوقعه؟» .

هزَّ رأسه .

قال هامساً : «ما الذي يفعلونه بكِ هنا؟» .

قلتُ : «لا شيء ، لا يفعلون شيئًا» .

قال : «إنَّ الوضع فظيعٌ هنا» .

كانت غرفة المعيشةِ تحديداً جزءاً فظيعًا من جناحنا . فهي ضخمة ، ومكتظة بكراسٍ فردية ضخمة مغطاة بالفينيل تُطلق الريح حين يجلس أحد عليها .

قلتُ : «إن الوضع حقًا ليس بذلك السوء» لكنني كنتُ معتادة عليه ، في حين لم يكن هو كذلك .

سار نحو النافذة على مهل مجدَّداً ونظر خارجًا . بعد برهة ، أومأ إليَّ بإحدى ذراعيه الطويلتين لآتي .

أشار إلى شيء وقال : «انظري» .

«إلى ماذا؟» .

«إلى تلك» كان يشير إلى سيارة . كانت سيارة رياضية حمراء ، لعلها سيارة إم جي . قال : «إنها ملكي» . لقد فاز بجائزة نوبل ، لذا في الأرجح أنه اشترى السيارة بمال الجائزة .

قلتُ : «إنها رائعة ، رائعة جدًا» .

أخذ الآن يهمس مرة أخرى . قال هامسًا : «بوسعنا أن نغادر» .

«ماذا؟» .

«أنتِ وأنا ، بوسعنا أن نغادر» .

«أتقصد بالسيارة؟» شعرتُ بالحيرة . أكان هذا سر الحياة؟ كان الهروب هو سر الحياة؟

قلتُ : «سيلاحقونني» .

قال : «إنها سريعة ، بوسعي أن أخرجكِ من هنا» .

فجأة شعرتُ برغبة في حمايته . قلتُ : «شكرًا ، شكرًا على عرضك . هذا لطف منك» .

«ألا تريدين الذهاب؟» مال ناحيتي . «بوسعنا الذهاب إلى إنجلترا» .

«إنجلترا؟» ما علاقة إنجلترا بأي مما يحدث؟ قلتُ : «لا يمكنني الذهاب إلى إنجلترا» .

قال : «بوسعكِ أن تكوني مربية أطفال» .

لعشر ثوانٍ تخيلتُ هذه الحياة الأخرى ، التي بدأت حين ركبتُ سيارة جيم واتسون الحمراء وانطلقنا مسرعين من المستشفى إلى المطار . الجزء المتعلق بكوني مربية أطفال كان غير واضح ، في الواقع ، الأمر برمته كان غير واضح . الكراسي الفينيلية ، الحواجز الأمنية ، صرير باب محطة التمريض : هذه الأشياء كانت واضحة .

قلتُ : «أنا هنا الآن ، يا جيم ، أظن بأن علي البقاء هنا» .

«حسنًا» لم يبدُ منزعجًا . جال بنظره في أرجاء الغرفة للمرة الأخيرة وهز رأسه .

بقيتُ عند النافذة . بعد بضع دقائق رأيتُه يركب سيارته الحمراء ويرحل ، مُخَلِّفًا وراءه سُحبًا صغيرة من عادم سيارته الرياضية . ثُم عدتُ لغرفة التلفاز .

قلتُ : «مرحبًا يا ليسا» كنتُ سعيدة لرؤيتي أنها ما زالت هناك .

قالت ليسا : «رنن» .

ثم قررنا أن نشاهد المزيد من التلفاز .

في عالمنا الموازي ، حدثت أمورٌ لم تحدث بعد في العالم الذي جئنا منه . حين تحدث أخيراً في الخارج ، نراها مألوفة لأنَّ نُسَخًا منها مُثِّلَت أمامنا . بدا الأمر وكأنَّنا جمهورٌ قرويٌّ ، ملاذٌ جديدٌ لعالم نيويورك الحقيقي ، حيث يمكن للتاريخ أن يُجري تجربة أداءٍ لعرضه التالي .

مثلاً ، قصَّة حبيبُ جورجينا ، وَيْد ، والسُّكر .

التقيا ببعضهما في الكافيتيريا . كان ويد داكن البشرة ، وسيمًا ، بشكل أمريكيٍّ بحت . ما جعله مُغريًا ثورته ؛ يثور على كلِّ شيء تقريبًا ، ويتوهَّج غضبًا . شرحت لي جورجينا بأن والده هو السبب .

«والده جاسوس ، وويد غاضبٌ من أنه لن يكون أبدًا قويًّا كوالده» .

كان اهتمامي منصبًّا على والد ويد أكثر من مشكلة ويد .

سألتُ : «جاسوسٌ لنا؟» .

قالت جورجينا : «بالطبع» لكنها لم تقل أكثر من ذلك .

عادةً ما كان ويد وجورجينا يجلسان على أرضيَّة غرفتنا ، ويتهامسان ، كان يُفترض بي أن أتركهما وحدهما ، وعادةً ما أفعلها . مع ذلك ، في أحد الأيام ، قرَّرتُ أن أبقى وأكتشف المزيد عن والد ويد .

يُحب ويد الحديث عنه . «إنَّه يعيش في ميامي ليتمكن من العبور لكوبا . لقد غزا كوبا ، قتل الكثير من النَّاس بيديه العاريتين . إنَّه يعلم من الذي قتل الرئيس» .

سألتُ : «أقتل هو الرئيس؟» .

قال ويد : «لا أخال ذلك» .

كان اسمُ عائلة ويد باركر .

عليَّ أن أعترف بأنِّي لم أصدِّق كلمةً ممَّا قاله ويد ، فقد كان ، رغم كلِّ شيء ، مجنوناً في السابعةِ عشر من عمره ، أضحى عنيفاً جداً حتــــــــى تطلَّبَ تقييده مساعِدَين ضخمين . أحيانًا يُحبَس في جناحه أسبوعا دون أن تتمكن جورجينا من الدخول لرؤيته . ثُمَّ يهدأ ، ويستأنف زياراته لأرضية غرفتنا .

لوالد ويد صديقان يثيران على نحوٍ خاص إعجاب ويد : لَدي ، وهَنْت . قال ويد : «أولئك الرجال سيفعلون أيَّ شيء!» كان غالبًا ما يقول ذلك ، وبدا قلقًا من ذلك .

لم يَرُق لجورجينا إلحاحي على سؤال ويد عن والده ؛ تجاهلتني حين جلستُ معهما على الأرضيَّة . لكن لم أستطع أن أقاوم .

سألتُه : «مثل ماذا؟ أيُّ نوع من الأمور سوف يفعلون؟» .

قال ويد : «لا يمكنني إطلاعكِ على ذلك» .

بعد ذلك بوقتٍ قصير ، دخل في حالةٍ عنيفةٍ استمرَّت أسابيع .

ضجرت جورجينا بدون زيارات ويد . ولأنِّي شعرتُ بأنِّي كنتُ جزئيًّا سببًا في غيابه ؛ عرضتُ عليها مُلهِيات متنوعة . قلتُ : «لنُعِد تزيين الغرفة . لنلعب لعبة كلمات» أو «لنطبخ أشياء»,

طبخُ الأشياء هو الذي نال استحسان جورجينا . قالت : «لنطبخ كاراميل» .

دُهشتُ من أنَّه بإمكان شخصين في المطبخ أن يُعِدَّا الكراميل ، فقد تخيَّلته شيئًا يُنتج إنتاجًا شاملاً ، كالسيَّارات ، فنحتاج إلى معدَّات معقدة .

لكن طبقًا لكلام جورجينا ، فكلُّ ما نحتاج إليه هو مقلاة وسكر .

قالت : «حين يتكرمل ؛ نصبُّه على هيئة كراتٍ صغيرةٍ على ورق الشَّمع» .

رأت الممرضات أنَّه من اللطيف أننا نطبخ ، وقالت إحداهن : «أتتدربين للوقت الذي ستتزوجين فيه أنتِ وويد ؟» .

قالت جورجينا : «لا أظنُّ أن ويد من الرجال الذين يميلون إلى الزواج» .

حتى مَن لم يسبق له إعداد الكراميل يعرف كم ينبغي أن تصل له درجة حرارة السكر قبل أن يتكرمل ، كان هذا مقدار حرارته حين انزلقت المقلاة وصببتُ نصف السُّكر على يد جورجينا التي كانت تثبِّت ورق الشَّمع بتنسيق .

صرختُ ، وصرختُ ، لكنَّ جورجينا لم تنبس ببنتِ شفة . ركضت الممرضاتُ إلى الدَّاخل وجلبنَ ثلجًا ، ومراهمَ ، ولفائف ، وظللتُ أصرخ ، ولم تفعل جورجينا أمرًا ، بل ثبتت مكانها ويدها المُسَكَّرةُ ممدودةٌ أمامها .

لا أذكر إن كان إي . هاورد هَنْت أو ج . غوردن لِدِي هو الذي قال أثناء جلسات استماع ووترغيت بأنَّه في كل ليلة يرفع يده فوق لهيب شمعةٍ إلى أن تحترق راحته ليتأكَّد من قدرته على تحمُّل التعذيب .

أيًّا كان القائل ، فنحن على علم مسبق بالأحداث : خليج الخنازير ، الجلد المحروق ، القتلة الذين يقتلون بأيديهم العارية وعلى استعداد لارتكاب أيِّ أمر . رأينا العروض السابقة ، ويد ، وجورجينا ، وأنا ، ومعنا حشدٌ مــــــن الممرضات اللاتي كانت مراجعاتهن من قبيل : «المريضةُ افتقرت إلى التأثُّر النفسي بعد الحادثة» أو «استمرارُ تخيُّل المريض بأنَّ أباه عميلٌ سريٌّ في وكالة الاستخبارات المركزيَّة وأنَّ له أصحابًا خطِرين» .

كانت ديزي حدثًا موسميًّا ؛ تأتي قبل عيد الشُّكر ، وتبقى أثناء الكريسماس كلَّ سنة . وفي بعض السِّنين تأتي أيضًا لعيد ميلادها في أيار .

دائما ما حصلت ديزي على غرفة منفردة . سألتْ رئيسة الممرضاتِ في إحدى صباحات تشرين الثاني أثناء اجتماعنا الأسبوعيِّ في الرَّدهة : «أترغب إحداكنَّ بمشاركة غرفتها؟» كانت لحظة مُوتِّرة . أنا وجورجينا ، اللتان تتشاركان الغرفة بالفعل ، سُمِح لنا بالاستمتاع في مشاهدة الارتباك .

«أنا! أنا!» رفعتْ واحدةٌ كانت حبيبة مرِّيخي ، ولها أيضًا قضيبٌ صغيرٌ خاصٌّ بها تتوق لإبرازه ، يداً ، لم ترغب واحدةٌ بمشاركتها الغرفة .

«كنتُ لأرغب إن رغبت واحدةٌ بذلك ، لكن بالطبع ، لن ترغب أيٌّ واحدةٍ بذلك ، لذا لا أرغبُ بإجبار واحدة على أن ترغب بذلك» كانت تلك سِنثيا ، التي بدأت التحدُّث بتلك الطريقة بعد ستة أشهر من الصدمة .

هبَّت بولي لنجدتها : «سأشاركك الغرفة يا سِنثيا» .

لكن ذلك لم يحل المشكلة ، لأنَّ بولي نفسها في غرفة مشتركة . كانت شريكة غرفتها مريضة جديدة مصابة بفقدان الشهيَّة تُدعى جانيت ،

حُدِّد لها برنامجُ تغذيةٍ بالإكراه في كل مرة ينزل وزنها عن خمسة وسبعين .

مالت ليسا نحوي ، وقالت بصوت عالٍ : «رأيتُها على الميزان البارحة : ثمانية وسبعون . ستظهر على التلفاز في عطلةِ نهاية الأسبوع» .

قالت جانيت : «ثمانية وسبعون هو الوزن المثالي» . كانت لتقول ذات الكلام إن كان وزنها ثلاثة وثمانون ، وتسعة وسبعون ، مع ذلك ، لذا لم ترغب واحدة في مشاركتها الغرفة أيضاً .

في النِّهاية ، مصابتان بالجامود تشاركتا الغرفة ، وغرفة ديزي مُهيئة لوصولها في الخامس عشر من تشرين الثَّاني .

كانت ديزي مولعة بشيئين : مليِّنات الأمعاء ، والدَّجاج . تذهب في كلِّ صباحٍ إلى غرفة التمريض ، وتنقر بأصابعها الشاحبة ، المُبَقَّعة بالنيكوتين ، على واجهة الاستقبال ، نافدة الصَّبر للحصول على مليِّنات الأمعاء .

تهسهس قائلة : «أريد دواء كوليس خاصَّتي» . «أريد دواء إكس-لاكس خاصَّتي» .

إن كانت إحداهن واقفةً بقربها ؛ تكزها بمرفقها على جنبها ، أو تدوس على قدمها . تكره ديزي أن يكون أحدٌ بقربها .

مرَّتان بالأسبوع ، كان والدها القصيرُ ، ذو وجه البطاطا ، يجلب دجاجةً كاملةً شوتها أمُّها مُغلَّفة بصفيحة ألومينيوم . تضع ديزي \الدجاجة على

حضنها ، وتداعبها عبر الصفيحة ، وتحرك عينيها سريعًا في أرجاء الغرفة ، تتوق لمغادرةِ والدها حتى يتسنَّى لها أن تشرع في أكل الدَّجاجة . لكنَّ والد ديزي أراد البقاء أطول مدة ممكنة لأنَّه يحبُّ ديزي .

وضَّحت ليسا لي الأمرَ قائلةً : «إنَّه لا يقوى على تصديق حقيقةِ أنَّهُ أنتجها . إنَّهُ يرغبُ بمعاشرتها ؛ ليتأكد من أنَّها حقيقيَّة» .

اعترضت بولي قائلة : «لكنَّ رائحتها كريهة» رائحتها ، بالطبع ، كالدَّجاج والغائط .

قالت ليسا : «لم تكن رائحتها كريهة دائماً» .

ظننتُ بأنَّ ليسا على حق ، لأنِّي لاحظتُ بأنَّ ديزي مثيرة ، مع أنها كريهة الرائحة ، وتحملق ، وتَحِفُّ ، وتنكز ، غير أنَّها تملك سحراً لا تملكه بقيتنا . ترتدي سراويل قصيرة ، وتيشرتات بلا أكمام لتبرز أطرافها الشاحبة ، النحيلة القويَّة ، وحين تمشي الهوينا صباحاً في الرواق لتحصل على مليِّنات أمعائها ، تؤرجح مؤخرتها على هيئة نصف دوائر لا مبالية .

كانت حبيبةُ المريخي تحبُّها أيضًا . تتبَّعها في الرواق وهي تدندن : «أترغبين برؤية قضيبي؟» لتُهسهس ديزي قائلة : «أتغوَّط على قضيبكِ» .

لم يسبق لإحدانا أن دخلت غرفة ديزي ، كانت ليسا مصممة على دخولها ، كان لديها خطة .

كانت ليسا تقول مدَّة ثلاثة أيَّام : «يا صاح ، هل أنا مصابة بالإسهال؟» . «واو» . في اليوم الرابع حصلتْ على بعض من دواء إكس-لاكس من رئيسة الممرضات . قالت زاعمةً في الصباح التَّالي : «لم ينفع . ألديكم دواءٌ أقوى؟» .

قالت رئيسةُ الممرِّضات : «ما رأيكِ بزيتِ الخروع؟» كانت مرهقة .

قالت ليسا : «هذا المكانُ حفرةُ ثعابين فاشيَّة . أعطوني جرعةً مضاعفة من دواء إكس-لاكس» .

أضحى معها الآن ستَّة إكس-لاكس ، وأصبحت مستعدَّةً للمقايضة . وقفت أمام غرفة ديزي .

نادتها : «يا ديزي» ثُمَّ ركلت الباب قائلة : «يا ديزي» .

قالت ديزي : «انصرفي!» .

«يا ديزي» .

هسهست ديزي .

مالت ليسا قريباً من الباب ، وقالت : «معي شيءٌ ترغبين به» .

قالت ديزي : «هراء» ثم فتحت الباب .

كنا أنا وجورجينا نراقب من نهاية الرُّواق . حين فتحت ديزي الباب مددنا رقبتينا ، لكن الظلام حالكٌ في غرفة ديزي مما منعنا من رؤية أي

شيء . حين أغلق الباب خلف ليسا ؛ انبعثت رائحةٌ جميلةٌ غريبة برهة عبر الرواق .

ظلَّت ليسا بالدَّاخل وقتًا طويلاً ؛ سئمنا من انتظارها ، وذهبنا للكافيتيريا لتناول الغداء .

أطلعتنا ليسا على ما حدث أثناء أخبار المساء ؛ وقفت أمام التلفاز ، وتحدَّثت بصوتٍ عالٍ غطَّى على صوت والتر كرونكايت .

قالت : «غرفةُ ديزي ملأى بالدَّجاج» وأردفَت قائلةً : «تأكل الدَّجاج فيها ، لديها طريقةٌ خاصَّة أرتها لي ، تقشِّر جلد الدَّجاجة لأنَّها تحبُّ الإبقاءَ على جثث الحيوانات كاملة ، حتى إنَّها تقشِّر أجنحة الدجاجةِ أيضًا ، ثُمَّ تضع جثَّة الدجاجة على الأرض بجانب آخر جثَّة دجاجة ، لديها حاليًّا قرابة تسع دجاجات ، وقالت بأنَّه حين تصبح أربع عشرة دجاجة ؛ فسيحين موعد رحيلها» .

سألتُها : «أأعطتكِ دجاجة؟» .

«لم أُرِد أيًّا من دجاجها النَتِن» .

سألت جورجينا : «لِمَ تفعل ذلك؟» .

قالت ليسا : «يا رفيقة ، أنا لا أعرف كلَّ شيء» .

«ماذا عن مليِّنات الأمعاء؟» أرادت بولي أن تعرف .

«تحتاج إليها ، تحتاج إليها بسبب كلِّ ذلك الدجاج» .

قالت جورجينا : «لا بدَّ من وجود تفسيرٍ آخر للأمر» .

قالت ليسا : «اسمعن! أصبحتُ قادرةً على دخول غرفتها» تدهور الحوارُ بسرعةٍ بعد ذلك .

ثمة المزيد من الأخبار حول ديزي خلال الأسبوع ، فقد اشترى لها والدها شقة بمناسبة الكريسماس ، أطلقت عليه ليسا «عُش الحُب» .

ديزي مسرورةً بنفسها ، وقضت وقتًا أكثر خارج غرفتها ، راجيةً أن يسألها أحدٌ عن الشقة فلبَّت جورجينا طلبها .

«كم يبلغ حجم الشقة يا ديزي؟» .

«غرفةُ نومٍ ، وغرفةُ معيشةٍ على هيئة حرف L ، ودجاج بطاولة طعام» .

«تقصدين مطبخًا بطاولة طعام؟» .

«هذا ما قُلتُه أيتها المغفلة» .

«أين تقع الشقة يا ديزي؟» .

«بالقرب من مستشفى ماساتشوستس العام» .

«أيمكننا أن نقول بأنَّه على طريق المطار» .

«بالقرب من مستشفى ماساتشوستس العام» لم ترغب ديزي أن تعترف بأنَّه على طريق المطار .

«ما أكثر ما يعجبكِ فيه؟» .

أغلقت ديزي عينيها وتوقفت لبرهة ، مُستَلِذَّةً بجزئها المفضَّل فيه ، ثُمَّ قالت : «اللافتة» .

«ما المكتوبُ على اللافتة؟» .

«إن عشتَ هنا فستكون في بيتك الآن» قَبَضَت على يديها من فرطِ الحماس . «أترين ، في كلِّ يومٍ سيعبر النَّاس بسياراتهم أمام اللافتة ويقرؤونها ، ثُمَّ سيحدِّثون أنفسهم قائلين : صحيح ، إن عشتُ هنا فسأكون في بيتي الآن . وسوف أكون في بيتي ، أيتها الحقيرات» .

غادرت ديزي مبكِّرًا تلك السنة لتقضي الكريسماس في شقتها .

قالت ليسا : «سوف تعود» لكن ليسا ، ولأول مرة ، جانبتِ الصواب .

بعد ظهيرةِ يومٍ من أيَّامِ شهر أيار ، استُدعينا لاجتماع خاصٍّ في الممرِّ .

قالت رئيسة الممرِّضات : «يا فتيات ، لديَّ بعضُ الأخبارِ السيِّئة» مِلْنا جميعًا بأجسادنا للأمام .

«انتحرت ديزي الليلة الماضية» .

سألتْ جورجينا قائلة : «هل كانت في شقتها؟» .

سألتْ بولي قائلة : «هل أطلقت النار على نفسها؟» .

سألتْ حبيبة المريخي قائلة : «من ديزي؟ هل أعرف ديزي؟» .

سألتُ قائلة : «هل تركت ملاحظة؟» .

قالت رئيسة الممرضات : «التفاصيل ليست مهمَّة» .

سألتْ ليسا قائلة : «لقد كان عيد ميلادها ، أليس كذلك؟» أومأت رئيسة الممرضات .

شرعنا جميعاً بلحظةِ صمتٍ لروح ديزي .

الانتحارُ نوعٌ من أنواعِ القتل . . . القتل العمد . إنَّه ليس أمرًا تفعله حين تفكِّر بفعله لأوَّل مرَّة ، عليك أن تعتاد عليه أوَّلاً ، بالإضافة لحاجتك إلى الموارد ، والفرصة ، والدافع . الانتحار الناجح يتطلَّبُ تخطيطًا جيِّدًا وذهنًا هادئًا ، وهما أمران يتعارضان عادةً مع حالة الانتحاريّ الذهنيَّة .

من المُهِمِّ أن تُنَمِّي حسَّ اللا مبالاة ، وإحدى الطرق لتنميتِه هو أن تتدرَّب على تخيُّل نفسك ميِّتًا ، أو في حالةِ احتضار . إن كان هناك نافذة فعليك أن تتخيَّل جسدك وهو يسقط منها . إن كان هناك سكين فعليك أن تتخيَّل السكين وهي تثقب جلدك . إن كان هناك قطارٌ قادم فعليك أن تتخيَّل جذعك وهو مُستَوٍ تحت عجلاته . هذه التمارين ضرورية لتحقيق المسافة المناسبة .

الأهميَّة الكبرى للدافع ، فبدون دافع قوي أنت محطَّم .

كانت دوافعي ضعيفة : مقالةٌ عن التَّاريخ الأمريكيِّ لم أرغب بكتابتها ، والسؤال الذي سألتُه قبل أشهر ، لمَ لا أقتل نفسي؟ فإن كنتُ ميِّتة لن أضطر لكتابة المقالة ، ولن أضطر لمنازعة السؤال .

أجهدتني منازعة السؤال ، فما أن تطرح السؤال ، لن يغادر ذهنك . أعتقد بأنَّ كثيراً من النَّاس قد قتلوا أنفسهم لأنَّهم بسهولة رغبوا بإيقاف النزاع حول إذا ما كانوا سيفعلونها أم لا .

كلُّ فكرة خطرت ببالي ، وأمرٍ قمتُ به ، كانا يدخلان فوراً ضمن النزاع . قلتُ تعليقًا غبيًا لِم لا أقتل نفسي؟ فاتتني الحافلة ؛ يُستحسَن أن أنهي كل شيء . حتى الأمور الحسنة دخلت ضمن النزاع ، أعجبني ذلك الفيلم ؛ ربما لا يجدر بي أن أقتل نفسي .

في الواقع ، لقد كان جزءاً منِّي فقط الذي أردتُ قتله : الجزء الذي أردتُ فيه قتل نفسي ، الذي جرَّني للنزاع حول الانتحار ، وجعل من كلِّ نافذةٍ ، وأداةٍ في المطبخ ، ومحطةِ قطار ؛ تمرينَ أداءٍ للمأساة .

مع ذلك ، لم أكتشف الأمرَ إلا بعدما ابتلعتُ خمسين حبَّة أسبرين .

كان عندي حبيبٌ اسمه جوني يكتب لي قصائد حُب . . . قصائد حُبٍّ جيِّدة . اتصلتُ به ، وأخبرته بأنِّي سأقتل نفسي ، وتركتُ سمَّاعة الهاتف معلَّقة ، تناولتُ خمسين حبَّة أسبرين ؛ ثمَّ أدركتُ بأنَّها غلطة . ثم خرجتُ لشراءِ بعض الحليب الذي طلبت منِّي أمي شراءه قبل تناولي للأسبرين .

اتصل جوني بالشرطة ، فذهبوا لمنزلي وأخبروا أمي بما فعلتُه ؛ فحضرَت إلى بقالة A&P على جادَّة ماساتشوستس تمامًا في الوقتِ الذي كنتُ فيه على وشك أن يُغمى عليَّ فوق طاولة بيع اللحوم .

حينما كنتُ أسير في الأحياءِ الخمسة نحو بقالة A&P تملَّكني الشعور بالإهانة والندم . اقترفتُ خطأً ، وكنتُ سأموت بسببه . ربما استحققتُ أيضًا أن أموت بسببه . بدأتُ أتحسَّر على موتي . للحظة ، شعرتُ بالشفقةَ على نفسي ، وعلى كل البؤس الذي كبحتُه . ثمَّ أضحت الأشياءُ حولي

تغبشُ وتئزُّ . في الوقتِ الذي وصلتُ فيه للبقالة ؛ تقلَّص العالمُ لنفق ضيِّق ، مُهتَز . فقدتُ حَوافَّ نظري ، كانت أذناي ترنَّان ، كانت نبضاتُ قلبي تدقُّ . شرائح الضلوع واللحم الدمويَّة المشدودة بأغلفتها البلاستيكيَّة كانت آخر الأشياء التي رأيتُها بوضوح .

أعاد إليَّ انتفاخُ معدتي وعيَي . أخذوا أنبوبًا طويلاً ووضعوه ببطء أعلى أنفي وأسفل مؤخرة حلقي ؛ بدا الأمرُ وكأنك تُخنَق حتى الموت ، وبدأوا بالضَّخ ؛ بدا الأمر وكأن دماءك تُسحَب بقدر كبير- الشفط ، شعوري بالنسيج العضلي وهو يهبط ويلمس ذاته كما لا ينبغي له ، شعوري بالغثيان لأن كل ما كان في داخلي سُحِب نحو الخارج . كان رادعًا جيِّدًا ؛ قرَّرتُ أنِّي في المرة القادمة حتمًا لن أتناول الأسبرين . لكن حين انتهوا ، تساءلتُ إن ثمة مرة قادمة . شعرتُ بشعورٍ طيِّب . لم أمت ، لكنَّ شيئًا مات . في الأغلب أنِّي تخلصتُ من هدفي الغريب في الانتحار الجزئي . كنتُ أقلَّ حدَّة ، وأكثر بهجة ممَّا كنتُ قبل سنين .

دام ابتهاجي شهرًا . قمتُ ببعض واجباتي المنزليَّة ، وكففتُ عن الالتقاءِ بجوني ، وتآلفتُ مع معلِّم اللغة الإنجليزيَّة خاصتي ، الذي كان حتى يكتب قصائد أفضل ، مع أنها ليست لي . صَحِبتُه لنيويورك ؛ فأخذني إلى لمتحف فريك لرؤية لوحات فيرمير .

الأمرُ الغريبُ الوحيد أنِّي أصبحتُ فجأة نباتيَّة .

ربطتُ اللحمَ بالانتحار ؛لأنَّه أغشي عليَّ فوق طاولة بيع اللحوم . لكنِّي علمتُ بأنَّ هناك سببًا آخر .

كان اللحمُ جريحًا ، ونازفًا ، ومحبوسًا في غلاف ضيِّق . وأنا ، مع أنِّي استرحتُ ستَّة أشهر من التفكير بالأمر ، كنتُ مثله .

ربما ما زال من غير الواضح كيف انتهى بي المطاف هناك ، لا بُدَّ من أنَّ الأمرَ كان أكبر من مجرَّدِ بثرة ، لم أذكر أنِّي لم ألتقِ بالطَّبيب قبلاً ، وبأنَّه قرَّر إرسالي إلى المصحَّةِ بعد خمس عشرة دقيقة فقط ، أو ربما عشرين . ما الذي بدا مختلاً جداً فيني لدرجة تجعل طبيبًا في أقلِّ من نصف ساعة يرسلني إلى مستشفى أمراض عقليَّة؟ لكنَّه خدعني قائلاً : بضعة أسابيع ، في حين أنِّي أقمتُ هناك قرابة السنتين ، كنتُ في الثامنة عشرة .

سجَّلتُ اسمي ، توجَّب عليَّ ذلك لأنِّي كنتُ راشدة ، إما أن أفعل ذلك أو كانوا سيصدرون أمرًا قضائيًا ، مع أنَّه لم يكن بإمكانهم قط أن يحصلوا على أمرٍ قضائيٍّ ضدِّي ، لم يكن عندي علمٌ بذلك لذا سجَّلتُ اسمي .

لم أكن خطرًا على المجتمع ، أكنتُ خطرًا على نفسي؟ حبَّاتُ الأسبرين الخمسين . . . لكنِّي فسَّرتُها ، كانت تعبيرًا مجازيًا عن رغبتي في التخلص من جانبٍ معينٍ من شخصيتي ، أديت نوعًا من إجهاض الذات بحبَّات الأسبرين تلك ، وقد أدَّت الغرض بعض الوقت ، ثُمَّ لم تعد مجدية ، لكنِّي لا أملك الجرأة لفعلها مجدَّدًا .

افهموا الأمرَ من وجهةِ نظره : إنَّهُ العام ١٩٦٧ ، حتى في حيوات كحياته ، حيوات مهنيَّة تُعاش في الضواحي خلف الشجيرات ، كان هناك تيَّارٌ غريبٌ تحت سطح الماء ، قاطرةٌ بحريَّةٌ من العالَم الآخر –من كون الشباب

الهائمين ، المخدَّرين ، الـــــــــــذين لا أسماء عوائل لهم– تسبب الانزعاج للناس . إن استخدمنا لغته فيمكن أن يُسَمِّيها أحدهم «تهديداً» ، ما الذي يفعله هؤلاء اليافعون؟ ثُمَّ تدخل مكتبه واحدةٌ منهم ، مرقشة الذَّقن ، ترتدي تنورة بحجم منديل المائدة ، وتتحدَّثُ بكلمات ذات مقطع واحد . يكتشف بأنَّها تحت تأثير مادة منشِّطة . ينظر للاسم المُدَوَّن على ورقة ملاحظات أمامه ، ألم يلتقِ بوالديها في حفلة قبل سنتين؟ في كلية هارفارد ، أم في معهد ماساتشوستس للتقنية؟ حذاءاها مهترئان ، لكنَّ معطفها حسن . إنَّهُ لعالَمٌ شرِّير ، كما كانت ليسا لتقول ، لكنَّهُ لا يقدر على إعادتها إليه بضمير مرتاح لتصبح حطام سفينة في موجة المجتمع الفرعي التي تجرف بين الفينة والأخرى في مكتبه ، مُخَلِّفَةً أخريات مثلها ، نوعًا من أنواع الطبِّ الوقائي .

أأنا لطيفةٌ معه أكثر من اللازم؟ قبل بضع سنوات قرأتُ بأن مريضةً سابقةً له اتهمته بالتحرُّش الجنسي . لكن ذلك أصبح يحدث كثيرا هذه الأيام ؛ أضحى اتهام الأطباء موضة . لعلَّه فحسب وقتُ الصباح الذي كان باكرًا جداً لكلينا ، ولم يستطع أن يفكر بتصرُّف آخر لفعله . ربما ، في الأغلب ، فعل ذلك لحفظ ماء وجهه فحسب .

شَرْحُ وجهةِ نظري أصعب .

ذهبتُ . أوَّلاً : ذهبتُ إلى مكتبه ، ثم ركبتُ سيارة الأجرة ، ثُمَّ صعدتُ الدرجات الحجريَّة نحو مبنى إدارة مستشفى مكلين ، و ، إن لم تخنِّي

الذاكرة ، جلستُ على كرسيٍّ خمس عشرة دقيقة منتظرةً أن أتنازل عن حريتي .

بضعةُ شروطٍ سابقة ضروريَّةٌ إن كنتَ ستفعل أمرًا كهذا .

كنتُ أعاني من مشكلةٍ مع الأشكال . السجَّادات الشرقيَّة ، بلاط الأرضيَّات ، رسومات الستائر ، أشياء كهذه . الأسواق المركزيَّة سيِّئة على وجه الخصوص بسبب ممرَّاتها الطويلة ، المُنَوِّمة ، التي على شكل رقعة الشطرنج . حين كنتُ أنظر لتلك الأشياء ، أُبْصِرُ أشياء أخرى داخلها . بدا الأمر وكأنِّي أهلوس ، ولم أكن أهلوس . أعرف بأنِّي أنظر نحو أرضيَّة أو ستارة . لكن كل الأشكال بدت وكأنها تمثِّل معانٍ محتملة ، معانٍ إن اجتمعت في تشكيلة مدوخة ستبدو وكأنها برهةً من الوقت تجسيدٌ لشيء . وتلك المعاني قد تكون . . . غابة ، سربًا من الطيور ، صورتي الفصليَّة في الصفِّ الثاني . حسنًا ، لم تكن أيًّا من ذلك ، كانت سجادة ، أو أيًّا ما كانت . لكن ما ألمحه فيها من معانٍ أخرى محتملة أمرٌ منهكٌ . أخذ الواقع يصبح كثيفًا جدًّا .

خطبٌ آخر أصاب تصوُّراتي عن النَّاس ، فحين كنتُ أنظر لوجه أحدهم ، فغالبًا لا أحافظ على تواصلٍ غير منقطع لمفهوم الوجه ، فما أن تبدأ بتحليل وجهٍ فإنَّ ذلك الوجه يُعدُّ شيئًا غريبًا : طريٌّ ، حاد ، بكثيرٍ من منافذ الهواء والمناطق الرطبة . وكان ذلك عكس مشكلتي مع الأشكال ، فبدلاً من أن أرى معانيَ كثيرة ، لم أكن أرى أيَّ معنى .

لكنِّي لم أَكُن مجنونة تسقط من مهوى منجمٍ نحو عالم العجائب . من سوءِ حظِّي ، أو خلاصي ، أنِّي كنتُ في كلِّ الأوقات واعيةً تمامًا بسوء فهمي للواقع . لم «أصدق» قطُّ أي شيءٍ رأيتُه أو خلتُ بأنِّي رأيتُه . ليس هذا فقط ، بل فهمتُ كل نشاطٍ غريبٍ جديد فهمًا سليمًا .

الآن ، أقول لنفسي : أنتِ تشعرين بأنَّكِ غريبة عن الناس ولستِ مثلهم ، لذلك تُسقطين انزعاجكِ عليهم . حين تنظرين لوجه ، ترين كتلة من المطاط لأنكِ قلقةٌ من أن وجهكِ كتلة من المطاط .

هذا الوضوحُ جعلني قادرةً على التصرف على نحو طبيعي ، ممَّا طرح بعض الأسئلة المثيرة للاهتمام . هل الجميع يرون تلك الأشياء ويتظاهرون بأنَّهم لا يرونها؟ هل الجنون لا يعدو كونه مسألة توقفٍ عن التظاهر؟ إن لم يرَ بعض النَّاس هذه الأشياء ، فما خطبهم؟ هل كانوا عميانًا أو شيئًا من هذا القبيل؟ جعلتني هذه الأسئلة مشوشة .

نُزِعَ شيءٌ ما ، غطاءٌ أو غلافٌ نجح في حمايتنا . لم أستطع أن أقرِّر ما إذا كان الغطاء شيئًا عليَّ ، أم شيئًا مرتبطًا بكلِّ شيء في العالم . لم يكن ذلك مهمًّا ، حقًّا ؛ فحيثما كان ، فإنه لم يَعُد له وجود .

وهذا الشرط المسبق الأساسي ، أنَّ كل شيء يمكن أن يكون شيئًا آخر . في اللحظة التي قبلتُ فيها بهذا ، عنى ذلك أنِّي قد أكون مجنونة ، أو أنَّ أحدهم قد يخالني مجنونة . كيف يمكنني قول بيقين أنِّي لم أَكُن

مجنونة ، إن كنتُ لا أستطيع أن أقول بيقين أن ستارة لم تكن سلسلة من الجبال؟

عليَّ أن أعترف ، رغم ذلك ، بأنِّي علمت أنِّي لم أكن مجنونة .

كان شرطًا مختلفًا سلفًا هو الذي رجحت كفته : حالة المخالفة . طموحي أن أخالف . العالم ، كثيفًا كان أم فارغًا ، لم يستحث سوى مخالفاتي . حين يفترض أن أكون مستيقظة كنتُ نائمة ، حين كان يفترض بي أن أتحدث كنتُ صامتة ، حين عرضتْ متعةٌ عليَّ نفسها ؛ تجنبتُها . جوعي ، عطشي ، وحدتي وضجري وخوفي كلها أسلحة موجهة نحو عدوي ، العالم . لم تكن تمثِّل ذرة في نظر العالم ، بالطبع ، كما أنَّها عذبتني ، لكنِّي شعرتُ برضا شنيع من معاناتي ؛ فقد أثبَتَتْ وجودي . بدا بأنَّ نزاهتي كلها تكمن في قول لا .

لذا فإنَّ فرصة أن أكون محبوسة أفضل من أن أقاومها . كانت «لا» كبيرة جداً ، أكبرُ «لا» من هذا الجانب من الانتحار .

المنطق المنحرف . لكن خلف ذلك الانحراف علمتُ بأني لستُ مجنونة ولن يبقوني هناك ، محبوسة في مستشفى للمجانين .

بابان مغلقان بينهما مسافة خمس أقدام حيث عليك أن تقف والممرضة تعيد إغلاق الباب الأول وفتح الثاني .

في الدَّاخل بالضبطِ ، ثلاثة أكشاك هاتف . ثُمَّ عدِّة غرف مُفرَدة ، وغرفة المعيشة ، ومطبخٌ بطاولة طعام . هذا التنسيق ضَمَنَ انطباعات أوليَّة حسنة عند الزوار .

مع ذلك ، ما إن تنعطف عند الزاوية المواجهة لغرفة المعيشة فإن الأمور تتغيَّر .

رواقٌ طويلٌ ، طويل : طويلٌ جدًّا . سبع أو ثمان غرف مشتـــــــــــــركة على جانب ، محطة التمريض متمركزة على الجانب الآخر ، بقرب غرفة الاجتماعات وحوض المعالجة بالماء . المجنونات على الجهة اليسرى ، وطاقم التمريض على الجهة اليمنى . الحمامات وغرف الاستحمام أيضًا على الجهة اليمنى ؛ وكأنَّ طاقم التمريض قد طالب بمراقبة أشد تصرفاتنا خصوصيَّة .

لوحٌ كُتِبَت عليه أسماؤنا التي تجُاوز العشرين بطبشورٍ أخضر ، تليها مسافةٌ نكتب فيها ، بطبشورٍ أبيض ، وجِهاتنا ، أوقاتَ مغادرتنا ، وأوقات عودتنا في أيٍّ وقت نغادر فيه الجناح . اللوح مُعَلَّقٌ مباشرةً أمام محطة التمريض . حين تكونُ إحداهُنَّ مجحوزةً في الجناح ؛ فإنَّ رئيسة الممرضات تكتب

مـحـجـوزة بطبشور أخضر بجانب الاسم . كُنَّا نتلقَّى سلفا تنبيهًا عن دخول إحداهنَّ المستشفى حين يظهر اسمٌ جديدٌ على القائمة ، أحيانًا يمرُّ يومٌ قبل أن تظهر صاحبة الاسم في الممر . المُسَرَّحاتُ والمِيِّتاتُ بقين ضمن القائمةِ بعض الوقت ؛ تخليدًا صامتًا لذكراهن .

في نهايةِ الممرِّ المريع ، تقع غرفة التلفاز المريعة . أحببناها . على الأقل ، فضَّلناها على غرفة المعيشة . كانت فوضويَّة ، مزعجة ، ينبعث منها الدخان ، والأهمُّ ، كانت على اليسار ، جهة الأشياء المجنونة . على حدٍّ علمنا ، فإن غرفة المعيشة لطاقم التمريض . كُنَّا غالبًا نطالبُ بنقل لقاءات الممر الأسبوعية من غرفةِ المعيشة إلى غرفة التلفاز ؛ لكنَّ ذلك لم يحدث قط .

بعد غرفةِ التِّلفاز ، يوجد منعطفٌ آخر في الممر . غرفتان مفردتان ، وغرفة مشتركة ، دورة مياه ، غرفة العزلة .

غرفة العزلة كانت بحجم دورة مياه الضواحي العاديَّة . نافذتها الوحيدة كانت شُبَّاكًا سِلْكيًا مفروضًا على الباب تُمكِّنُ النَّاس من النظر داخلها ورؤية ما تنوي فعله . لا يسعك أن تتورَّط بكثيرٍ من الأمور وأنت داخلها . الشيءُ الوحيد داخلها مرتبةٌ مُجَرَّدة على الأرضية الخضراء المشمعة . الجدرانُ مُقَطَّعة ، وكأنَّ إحداهُنَّ قد ظلَّت تخدشها بأظافرها أو أسنانها . يُفترض بغرفة العزلة أن تكون عازلة للصوت لكنها ليست كذلك .

يمكنك أن تدخل بسرعة غرفةَ العزلة ، وتغلق الباب ، وتصوِّت بعض الوقت . وحين تنتهي بوسعك أن تفتح الباب وتغادر . الصُّراخُ في غرفة التِّلفاز أو الممر عُدَّ «إساءة تصرُّف» وفكرةً غير صائبة . لكنَّ الصُّراخ في غرفة العزلة مقبولٌ .

يمكنك أيضًا أن «تَطلُب» منهم حبسك في غرفة العزلة . لم تطلب الكثيرات هذا الطلب . وعليك أن «تطلب» لتَخرُج أيضًا ، تنظر ممرِّضةٌ من خلال الشُّباك السلكي وتقرر إن كنتَ جاهزًا للخروج . أمرٌ يشبه لحدٍّ ما النظر لكعكة من خلال زجاج الفرن .

وآدابُ غرفة العزلة كالآتي : إن لم تَكُن محبوسًا فيها فبوسع أيٍّ أحدٍ الانضمام إليك . يمكن لممرِّضةٍ أن تقاطع صياحك لتحاول معرفة السببَ الذي دعاك للصياح ، أو يمكن لشخصٍ آخر مجنون أن يدخل ويشرع في الصياح أيضًا . لهذا السبب الشخصُ «يطلب» . كانت الحرية ثمن الخصوصية .

مع ذلك ، فإنَّ الغاية الحقيقيَّة من غرفة العزلة هي الحجر الصحي للأشخاص الذين فقدوا صوابهم . حافظنا جماعيًّا على درجةٍ معيَّنة من الصَّخب والبؤس ، ومَن تستمرُّ بدرجةٍ أعلى أكثر من عدَّة ساعاتٍ توضع في غرفة العزلة ، وإلا ، باستنتاج طاقمِ التمريض ، سنرفع كلُّنا درجة جنوننا ، وسيفقد طاقم التمريض القدرة على السيطرة . ما من معيار موضوعيّ هناك يُقَرَّرُ على أساسه وضع شخصٌ في غرفة العزلة ، بل كان نسبيًّا ، مثل منحنى التدريج في الثانوية .

غرفة العزلة فعَّالة ؛ فبعد قضاءِ يومٍ أو ليلة فيها دون فعل المرءِ لشيء ، فإن معظم النَّاس يهدَءُون ، وإن لم يهدَءُوا ؛ فإنَّهم حينها يخضعون للحراسة المشددة .

أبوابنا المقفلة بإحكام ، نوافذنا فولاذيَّة الشَّبك ، مطبخنا الممتلئ بالسكاكين البلاستيكيَّة والمغلق إلا حين تكون برفقتنا ممرضة ، أبواب حمَّاماتنا التي لا يمكن إقفالها : كلٌّ ما سبق هو حراسة متوسِّطة . الحراسة المشددة كانت عالمًا آخرًا .

استهلال لفصل : المثلجات

كان موقع المستشفى على تَلٍّ خارج البلدة ، كحال المستشفيات التي تظهر في الأفلامِ التي تتحدَّث عن المجانين . كان مستشفانا مشهوراً ، وقد آوى الكثير من عظام الشعراء والمغنين . آختصَّ المستشفى بالشُّعراء والمغنِّين ، أم أنَّ الشُّعراء والمغنِّين اختصُّوا بالجنون؟

ري تشارلز أشهر مريض سابق . كُنَّا نأمل جميعًا أن يعود ويغنِّي لنا من تحت نافذة جناح إعادة تأهيل المدمنين ، لكنَّه لم يَعُد قط .

مع ذلك ، لدينا آل تيلور . ارتقى جيمس لمستشفى آخر قبل قدومي ، لكنَّ كيت وليفينغستن كانا هناك . في غياب ري تشارلز ، فإنَّ صوت البلوز الصَّادر من خُنَّة لهجتهم الكارولاينيَّة الشماليَّة يكفينا حُزنًا . حين تكون حزينًا فإنَّ عليك أن تسمع كآبتك على هيئة صوت .

لم يأتِ رابِرْت لُوِيل أيضًا حين كنتُ هناك . كانت سيلفيا بلاث تأتي وتذهب .

ما الذي يختصُّ به الوزنُ ، والنَّغمة ، والإيقاع ، حتى تُحيل صُنَّاعها مجانينًا؟

التُّرَبُ واسعة ، ومزروعةً على نحوٍ جميل . ونظيفةً جداًّ أيضًا لأنَّه لم يُسمَح لنا أن نتمشى فيها إلا نادراً . لكن بين الفينة والأخرى ، مكافئة مميَّزة لنا ، كُنَّا نؤخَذُ عبرها في طريقنا لشراء المثلَّجات .

للمجموعة هيكلةٌ ذَرِّيَّة : نَوَياتُ مجنونات ذريَّة محاطةٌ بإلكترونات ممرِّضات متوتِّرات ، مندفعات ، موكلاتٌ بحمايتنا ، أو بحماية سكان بلمونت منَّا .

كان السُّكان أثرياء ، عَمِل معظمهم مهندسين ، أو تكنوقراطيِّين على طريق التقنية السريع ، مسار ١٢٨ . النَّوع الآخر ذو الأهميَّة من سكان بلمونت هم الجونبيرشيُّون .

يبعد مقر جماعة جون بيرش في شرق بلمونت كبُعد موقع المستشفى غربًا ، كُنَّا نحسب المؤسَّسَتَين شيئًا واحداً لكن بهيئتين مختلفتين ، ولا شكَّ أنَّ البرشيِّين لم يشاركونا هذا الحسبان . لكنَّ بلمونت كانت حائلاً فيما بيننا . والمهندسون على علمٍ بذلك لذا حرصوا على ألا يحدقوا حين دخلنا ردهة محل المثلَّجات .

القولُ بأنَّنا سافرنا مع مجموعةٍ من الممرضات لا يفسِّر الوضع تفسيراً شاملاً . نظام «امتيازات» معقَّد كان يحدِّد كم ممرضة ترافق كلَّ مريضة ، وما إذا يُسمح للمريضة أصلاً مغادرة المستشفى .

بدأ نظام الامتيازات من عدم وجود امتيازات : الاحتجاز في الجناح . كان هذا غالبًا وضع ليسا . أحيانًا تُرَقَّى للمرتبة التالية : اثنتان لواحدة ، معنى

هذا أنَّ بوسعها مغادرة الجناح إن كان برفقتها ممرضتان ، لكن فقط للذهاب إلى الكافيتريا أو العلاج الوظيفي . لكن حتى مع النسبة العالية لطاقم التمريض مقابل كلِّ مريضة ، فإن اثنتان لواحدة كان يعني غالبًا الاحتجاز في الجناح ، فمن النَّادر أن تُعفى ممرضتان عن إمساك ليسا من مرفقيها وجرها لتناول العشاء . ثُمَّ هناك واحدة لواحدة : ممرضةٌ ومريضة مترابطتان كالتوائم السيامية . بعض المريضات كُنَّ ضمن واحدة لواحدة حتى داخل الجناح ، وهو أمرٌ يشبه امتلاكهن مُساعِدةً ، أو خادمًا ، أو ضميرًا سيِّئًا . اعتمد ذلك على الممرضة . وجود ممرضة مهملة ضمن واحدة لواحدة يُمكن أن يكون مشكلة إذ هي عادةً مهمَّة طويلة الأمد ، حتى يتسنى للممرضة فهم مريضتها .

كان تدرج [الامتيازات] معقَّدًا : واحدةٌ لاثنتين (ممرضة ، مريضتان) تؤدي إلى المجموعة (ثلاث أو أربع مريضات وممرضة واحدة) . إن أحسنتِ التصرُّف في المجموعة تحصلين على ما يُسمَّى امتيازات الوِجهة : هذا يعني مهاتفة رئيسة الممرضات حال وصولكِ لأي مكان كنت ذاهبةً إليه لإعلامها بأنك كنتِ هناك . عليكِ أن تتصلي قبلَ عودتكِ أيضًا ، ليتسنَّى لها حسابُ الوَقت والمسافة في حَال هربتِ بدلاً من ذلكَ . ثُمَّ كان هناك المرافَقة المشتركة ، وهي تعني مريضتان غير مجنونتان نسبيًا يذهبن معًا إلى عدَّة أماكن . والامتياز الأعظم هو الأراضي ، ويعني أنَّ بوسعكِ التجوُّل في كلِّ أرجاء المستشفى بمفردكِ .

ما أن تُنجَز مراحل درب الصَّليب هذه داخل المستشفى حتى تبدأ الدورة كاملة من جديد في العالم الخارجي . من تتمتع بالمرافقة المشتـــــــــــركة أو الأراضي ستظلُّ في الأرجح ضمن المجموعة في الخارج .

لذا حين ذهبنا لمحلٍّ بيليز في ميدان ويفرلي مع حاشيتنا من الممرضات ، كان تنظيم الذرَّاتِ في جُزَيْئنا أشدَّ تعقيداً مما بدا لزوجاتِ المهندسين اللاتي كُنَّ يرتشفن القهوة على المنضدة ويتظاهرن بلطفٍ أنَّهن لا ينظرن إلينا .

لا تكون ليسا معنا فهي لم تتجاوز قطُّ واحدة لواحدة بعد هروبها الثالث . بولي كانت ضمن واحدة لواحدة ، لكن ذلك لجعلها تشعر بالأمان ، لا لجعلها تشعر بأنها مقيدة ، وهي ترافقنا دائمًا . أنا وجورجينا ضمن المجموعة ، ولكن لأنَّ لا أحد عدانا ضمن المجموعة ، كُنَّا فعليًا ضمن واحدة لاثنتين . سينثيا وحبيبة المريخي ضمن واحدة لاثنتين ، ممَّا جعل الأمر يبدو كأنِّي وجورجينا على قدرٍ مساوٍ من الجنون مع سينثيا وحبيبة المريخي ، لم نكن كذلك ، وثمة قدرٌ من الاستياء من جهتنا . وديزي في قمة الجدول :كل البلدات والأراضي . لم يستطع أحدٌ أن يعرف السبب .

ستُّ مريضاتٍ ، ثلاثُ ممرِّضات .

تستغرق تمشيةٌ عشرًا أو خمسَ عشرة دقيقة أسفلَ التَّل ، خلفَ شجيرات الورد وأشجارَ مستشفانا الجميل المهيبة . كلَّما ابتعدنا أكثر عن جناحنا ؛ زاد توتر الممرِّضات . في الوقتِ الذي وصلنا فيه إلى الشَّارع أصبحن

هادئات وقريبات منا ، واتَّخذن مظهر اللا مباليات ، وهو تعبيرٌ يقول : أنا لستُ ممرِّضةً ترافق ستَّ مجنوناتٍ لردهةِ المثلَّجات .

لكنَّهُنَّ كذلك ، نحن مجنوناتهنَّ الستَّ ، لذا تصرَّفنا كالمجنونات .

لم تَقُم أيٌّ منَّا بأمرٍ غير اعتيادي ، استمررنا فحسب بفعل ما كُنَّا نفعله في الجناح : التمتمة ، الزمجرة ، البكاء . نكزتْ ديزي النَّاس ، اعترضت جورجينا متذمرة بأنها ليست على قدرٍ مشابه للجنون بتينك الاثنتين .

«كفاكن إساءةً للتصرُّف» هذا ما كانت لتقوله إحدى الممرضات .

لم يترفَّعن عن قرصنا ، أو نكزنا نكزات مشابهة لنكزاتِ ديزي لإخراسنا : قرصات الممرضة . لم نلمهن على محاولاتهن ، ولم يلمننا على التصرف على طبيعتنا . كان ذلك كل ما نملكه ، الحقيقة ، والممرضات كن يعرفن ذلك .

كان يومًا ربيعيًا ، من شاكلة الأيَّام التي تمنح الناس الأمل : ريحٌ معتدلة ، وروائح رقيقةٌ تنبعث من الأرض الدافئة ؛ جوٌّ انتحاريٌّ . قتلتْ ديزي نفسها الأسبوع الفائت . في الأرجح أنهن رأين أننا بحاجة إلى أمر يُلهينا . بدون ديزي ، كانت النسبة العالية لطاقم التمريض مقابل كلٍّ مريضة أعلى من المعتاد : خمسُ مريضات ، ثلاث ممرضات .

أسفل التل ، خلف شجرة المغنولية التي فقدتْ بالفعل أزهارها الممتلئة ، وتحوَّل الورديُّ لبنيٍّ متعفِّنًا إلى أطرافها ، خلف أوراق النرجس البري الجافة ، خلف شجرة الغار الدبقة التي يمكن أن تتوج رأسك أو تُسَمِّمك . كانت الممرضاتُ أقل توترًا في الشارع ذلك اليوم ، حمى الربيع جعلتهن لا مباليات ، أو ربما كانت نسبة طاقم التمريض مقابل كلِّ مريضة مريحة لهن .

أرضية ردهة محل المثلجات أزعجتني ؛ كانت بلاطات مربعة باللون الأبيض والأسود ، أكبر من مربَّعات السوبرماركت . إن نظرتُ لمربَّع أبيض فقط فسأكون بخير ، لكن كان يصعب تجاهل المربعات السوداء التي تحيط بالمربعات البيضاء . التباين أغضبني . كنتُ أشعر دائمًا برغبة في حكِّ جلدي في ردهةِ محلِّ المثلجات . كانت الأرضيَّة تعني نعم ، لاً ، هذا ،

ذاك ، أعلى ، أسفل ، يوم ، ليل- كلُّ الأمور المحيرة والمتقابلة كانت سيئة بما فيه الكفاية في الحياة دون أن تُكتب لك على الأرضية .

ثمة صبيٌّ جديدٌ يقدِّم المخروطات ، اقتربنا كتيبةً نحوه .

قالت إحدى الممرضات : «نريد ثمانية مخروطات مثلَّجات» .

قال : «حسنًا» ، كان وجهه لطيفًا ، ومصابًا بحَبِّ الشباب .

استغرقنا وقتًا طويلاً لنقرر أي نكهة نريد ، هذا هو الحال دائمًا .

قالت حبيبة المريخي : «عود النعناع» .

قالت جورجينا : «يُسمى "نعناعًا" فحسب» .

«قضيب النعناع» .

«صدِقًا» كانت جورجينا على وشك أن تشتكي .

«بظر النعناع» .

قُرصَت حبيبة المريخي قرصة بسبب ذلك .

لم تكن هناك راغباتٌ أُخَر بالنعناع ؛ فالشوكولاته كانت أكثر نكهةٍ مفضلة . لديهم نكهةٌ جديدة بمناسبة الربيع ، خوخ مِلبا . طلبتُ تلك النكهة .

سأل الصبيُّ الجديد : «أتردن إضافة مكسّرات[1] معها؟»

---

[1] كلمة Nuts (مكسرات) تأتي بمعنى الخصيتين أيضًا. (المترجمة)

نظرنا لبعضنا : أعلينا قولها؟ حبست الممرضات أنفاسهن . في الخارج ، كانت الطيور تغرد .

قالت جورجينا : «لا أظن بأننا نحتاجها» .

فحوصات

فحوصات الخمس دقائق ، فحوصات الخمس عشرة دقيقة ، فحوصات النصف ساعة . قالت بعض الممرضات : «فحوصات ،» حين فتحن الباب . نقرة إدارة المقبض ، صرير فتح الباب ، «فحوصات ،» صرير سحب الباب أثناء إغلاقه ، نقرة إدارة المقبض . فحوصات الخمس دقائق . لا متسع من الوقت لشرب كوب قهوة ، لقراءة ثلاث صفحات من كتاب ، للاستحمام .

حين اختُرعت الساعات الرقمية في السنوات التالية ذكَّرتني بفحوصات الخمس دقائق فقد قتلن الوقتَ بذات الطريقة ، ببطء ، وقطَّعن أجزاءً منه ، ورمينها في سلة المهملات بنقرة صغيرة لإعلامك بانتهاء الوقت . نقرة ، صرير ، «فحوصات ،» صرير ، نقرة : تُهدَر خمس دقائق أخرى من الحياة ، وتُقضى في هذا المكان .

أصبحتُ أخيراً ضمن فحوصات النصف ساعة ، لكن جورجينا ظلَّتْ على فحوصات الخمس عشرة دقيقة ، وما دمنا في غرفة واحدة ، لا يُحْدِث ذلك فرقًا . نقرة ، صرير ، «فحوصات» صرير ، نقرة .

كان ذلك سببًا لتفضيلنا الجلوس أمام محطة التمريض حيث يمكن لمسؤولة الفحوصات أن تطلَّ برأسها وتأخذ مسحها بدون إزعاجنا .

أحيانا كُنَّ يملكن الوقاحة ليسألن عن مكان إحدانا .

نقرة ، صرير ، «فحوصات»- انقطع الإيقاع للحظة . «أرأيتن بولي؟» .

هرَّتْ جورجينا قائلة : «لن أقوم لكِ بعملكِ» .

صرير ، نقرة .

قبل أن تدرك الأمر ، ستجدها قد عادتْ . نقرة ، صرير ، «فحوصات ،» صرير ، نقرة .

لم يتوقف الأمر قطُّ ، حتى أثناء الليل ، كان تهويدتنا ، بندولَ إيقاعنا ، نبضنًا ، كان حيواتنا مُقاسَةً بجرعات أكبر بقليل من ملاعق القهوة المشهورة تلك . ملاعق الحساء ، ربما؟ الملاًعق القصديريَّة المنبعجة المترعة بما انبغى أن يكون حلواً لكنه حامضٌ ، فسدتْ ، مرَّتْ بدون أن نستلذ بها : حيواتنا .

مقص الأظافر ، مبرد الأظافر ، آلة الحلاقة الآمنة ، المطواة (التي أعطاكِ إياها والدكِ حين كنتِ في الحادية عشرة) ، المشبك (ذلك المشبك الذي حصلتِ عليه حين تخرجتِ في الثانوية ، الذي فيه لؤلؤتان ورديتان صغيرتان) ، قُرطا جورجينا الذهبيان الصغيران (لا يمكن أن تكوني جادَّة! يقصدن مُثَبِّتَي القُرْطَينْ ، أترين -أرتها الممرضة مَعْدِنَي مُثَبِّتَي القُرْطَينْ الخشنَين- إنَّهما حادَين ، أترين) ، ذلك الحزام (حزامي؟ ما الذي يحدث هنا؟ الإبزيم كان المذنب . يمكنك ربما أن تثقب عينيك بهذا الجانب من الإبزيم ، الطرف المسنون) ، السكاكين . في الواقع ، بوسعك أن تنافح عن السكاكين . لكن الشُّوَك والملاعق أيضًا؟ السكاكين ، والشُّوك ، والملاعق .

كنا نأكل بالأدوات البلاستيكيَّة ، ومستشفانا نزهة دائمة .

تقطيعُ لحمٍ بقريٍّ قديمٍ قاسٍ بسكين بلاستيكية ، ثُمَّ غرفه بشوكـــــــــــــة بلاستيكيَّة (أسنان الشوكة لن تنغرز في اللحم لذا عليك استخدام الشوكة ملعقة) : يختلف مذاق الطعام حين يُـــــــــــؤْكَل بأدوات أكل بلاستيكيَّة .

ذات شهر ، تأخر وصول أدوات الأكل البلاستيكيَّة ، وأكلنا بالسكاكين والشوك والملاعق المصنوعة من الورق المقوى . أسبقَ لك وأن أكلتَ

بشوكةٍ من الورق المقوى؟ تخيَّل مذاقها ، ورقٌ مقوًى متخثِّر ذائب يدخل ويخرج من فمك ، يفرك لسانك .

ما رأيكِ بحلاقة ساقيكِ؟

اذهبي إلى محطة التمريض . «أريد أن أحلق ساقيَّ» .

«دقيقةٌ واحدةٌ فقط» .

«سأستحمُّ الآن وأريد أن أحلق ساقيَّ» .

«دعيني أتحقَّقُ من طلباتكِ» .

«حصلتُ على طلباتي بحلاقة شعري تحت الإشراف» .

«دعيني أتحقَّق» خشخشة ، قعقعة . «حسنًا . دقيقةٌ واحدةٌ فقط» .

«سأذهب الآن» .

داخل الحوض ، الذي حجمه كحجم حمَّام سباحة ، كحجم حمَّام سباحةٍ في الألعاب الأولمبيَّة ، عميقٌ وطويلٌ وذو أرجُل مِخلبيَّة : نقرة ، صرير ، «فحوصات» .

«أنتِ ، أين آلة حلاقتي؟» .

«أنا فقط مسؤولة الفحوصات» .

«يُفترض أن أحلق ساقيَّ الآن» .

صرير ، نقرة .

المزيد من الماء الساخن : أحواض المعالجة بالماء هذه مريحةٌ حقًّا .

نقرة ، صرير ، المشرفة على حلاقتي .

«هل جلبتِ آلة حلاقتي؟» .

ناولتني إيَّاها . إنَّها تقعد على الكرسي المجاور لحوض الاستحمام . أبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا . عمرها اثنان وعشرون عامًا . إنَّها تشاهدني أحلق ساقيَّ .

كُنَّا نملك الكثير من السيقان المُشْعِرة في جناحنا . نسْوِيَّاتٌ على الطِّراز القديم .

ذات يوم وصلتْ ليسا أخرى . ناديناها باسمها الكامل ، ليسا كودي ، لنميِّزها عن ليسا الحقيقيَّة ، التي ظلَّتْ بسهولة ليسا ، مثل ملكة .

أصبحت الليستان صديقتين . إحدى فعالياتهما المفضلة إجراء المحادثات الهاتفية .

كانت أكشاك الهاتف الثـــــــلاثة بالقرب من الأبواب المزدوجة المغلقة بإحكام خصوصيَّتنا الوحيدة . يمكننا أن ندخل إحداها ونغلق الباب . حتى أكثرنا جنونا يمكنها أن تقعد في كشك هاتف وتحظى بمحادثة خاصَّة– لكن مع نفسها فحسب . امتلكت الممرضاتُ قوائمَ بالأرقام المسموحة لكلِّ واحدةٍ منَّا . حين كُنَّا نرفع السماعة ، تجُيبنا ممرضة .

كنا نقول : «مرحبًا» . «معكِ جورجينا» أو سينثيا ، أو بولي «أريد أن أتصل برقم 4270 – 555» .

كانت الممرضة تقول : «هذا ليس في قائمتكِ» .

ثم يُغلق الخط .

لكن ما يزال هناك كشك الهاتف المُغبَرّ جداً والـــــــسماعة السوداء قديمة الطراز بقِمَّتِها الظَّهْرِيَّة الحادَّة .

كان بين الليستينْ محادثاتٌ هاتفيَّة . تدخل كلٌّ منهما كشكًا ، وتغلق الباب ، وتصرخ على سماعتها . حين تجُيب الممرضة ، تصرخ ليسا : «أغلقي الخط!» ثم تُكمل الليستان محادثتهما . أحيانًا تصرخان بالإهانات ؛ أحيانًا تصرخان عن خططهما لليوم .

تصرخ ليسا كودي : «أتريدين الذهاب إلى الكافيتيريا لتناول العشاء؟» .

لكنَّ ليسا محجوزةً في الجناح ، لذا سيتوجب عليها أن تجيبها صارخةً بعبارة مثل : «لِمَ تريدين تناول فضلات الطعام تلك مع كل أولئك الذُّهانيَّاتِ؟» .

ممَّا يجعل ليسا كودي تجيبها صارخة :

«وماذا تخالين نفسكِ؟» .

لتُجيبها ليسا صارخةً بفخر : «معتلة اجتماعيًّا» .

لم تُشَخَّص حالة ليسا كودي بعد .

سينثيا مكتئبة ، بولي وجورجينا مُنْفَصِمَتان ، أنا مصابة باضطراب الطَّبع . يسمونه أحيانًا باضطراب الشخصيَّة . حين حصلتُ على تشخيصي لم يبدُ الأمر خطيراً ، لكن بعد مدة بدأ يصبح أكثر إنذارًا بالشؤم مما يعاني منه الناس الآخرين . تخيَّلتُ شخصيتي كصحن أو قميص صُنِع بطريقةٍ خاطئة ، وهي عديمة الفائدة لهذا السبب .

حين أكملتْ معنا شهرًا أو نحوه ، شُخِّصَتْ حالة ليسا كودي . معتلة اجتماعيًّا أيضًا . كانت سعيدة ، لأنَّها أرادت أن تكون مثل ليسا في كل شيء . لم تكن ليسا سعيدة جدًا ، لأنها كانت الوحيدة بيننا المعتلة اجتماعيًّا .

قالت لي ذات مرة : «نحن نادرون جدًا ، وفي الغالب نحن رجال» .

بعد أن شُخِّصَت حالة ليسا كودي ، أخذت الليستان تفتعلان المزيد من المشاكل .

قالت الممرضات : «إنَّهما تسيئان التصرُّف» .

نعرف حقيقة الأمر . كانت ليسا الحقيقية تثبت بأن ليسا كودي ليست معتلة اجتماعيًّا .

خبأت ليسا حبوب أدوية النَّوم تحت لسانها مدة أسبوع ، وتناولتها دفعة واحدة ، وظلَّت مرهقة يوما وليلة . تمكنت ليسا كودي من حفظ أربع حبوب فقط من أدويتها ، وحين تناولتها ، تقيأتْ . أطفأتْ ليسا سيجارة على ذراعها في السادسة وعشرين دقيقة صباحًا حين كانت الممرضات يتبادلن المناوبات . بعد ظهيرة ذلك اليوم ، حرقتْ ليسا كودي كدمة صغيرة على رسغها وقضتْ العشرين دقيقة التالية تصبُّ الماء البارد عليها .

ثُمَّ تعاركتا معركة تاريخ حياة .

انتزعتْ ليسا من ليسا كودي حقيقة كونها ترعرعتْ في غرينيتش ، كنيتيكت .

قالت ساخرة : «غرينيتش ، كنيتيكت!» . ما مِن معتل اجتماعي قد يخرج من هناك . «أكنتِ مستهلَّة[2] أيضًا؟» .

سبيد ، بلاك بيوتي ، كوكايين ، هيروين- جربتها ليسا كلها . قالت ليسا كودي بأنها كانت مدمنة مخدرات أيضًا . رفعتْ كُمَّها لتُظهر ما عليها من آثار الإبر : خدوش باهتة على مدى الوريد كما لو كانت قد اشتبكتْ مرة واحدة ، قبل سنين ، مع شجيرة ورد .

قالت ليسا : «مدمنة مخدرات من سكان الضاحية ،» وأردفتْ قائلة : «كنتِ تلعبين ، هذه حقيقة الأمر» .

اعترضتْ ليسا كودي قائلة : «يا رفيقة ، المخدرات مخدرات» .

رفعتْ ليسا كمَّها إلى مرفقها ، وأقحمتْ ذراعها تحت أنف ليسا كودي . كان ذراعها مرصَّعًا بكُتَل بُنِّيَّة باهتة ، مُغَضَّنةً وأصلية .

قالت ليسا : «هذه هي الآثار ، يا رفيقة . وداعًا لآثاركِ» .

هُزِمَت ليسا كودي ، لكن كان يعوزها المنطق لتستسلم . ظلَّتْ تجلس بجانب ليسا أثناء الفطور واجتماع الممر . ظلَّتْ تنتظر في كشك الهاتف الاتصال الذي لم يأتِ .

---

[2] فتاة تظهر للمرة الأولى في الحفلات الاجتماعية. (المترجمة)

قالت ليسا : «عليَّ أن أتخلص منها» .

قالت بولي : «إنَّكِ لئيمة» .

قالت ليسا : «عاهرةٌ لعينة» .

سألتها سينثيا ، حارسةُ بولي : «مَن؟» .

لكنَّ ليسا لم تتجشَّم عناء التوضيح .

ذات مساء حين كانت الممرِّضاتُ تسير عبر الممرَّات في وقت الغسق لإضاءة الأنوار التي تجعل جناحنا ساطعًا ومزعجًا كما الملهى البِنْسِي[3] ، وجدن أنَّ كل المصابيح قد اختفت . لم تكن مُعطَّلة ، بل تلاشت .

كنا نعرف من فعلتها . السؤال : أين وضعتها؟ ويصعب البحث في الظلام . حتى المصابيح التي في غرفنا قد اختفت .

قالت جورجينا : «إنَّ ليسا تتمتَّع بالمزاج الفني الحقيقي» .

قالت رئيسة المرضات : «ابحثن فحسب ، ليبحث الجميع» .

ليسا تخلَّفتْ عن البحث في غرفة التلفاز .

ليسا كودي من وجدتها ؛ كما كان ينبغي لها . كانت في الأرجح تخطِّط للتخلُّف عن البحث أيضًا ، في المكان الذي يحمل ذكريات أيام أفضل . لا بدَّ أنَّها شعرتْ بشيءٍ من المقاومة حين حاولتْ فتح الباب –ثمة عشرات

[3] مركزٌ لِلَّهو، كلُّ أداةٍ من أدواتِ التسلية فيه يمكن إعمالها لقاء مبلغ صغير. (المترجمة)

المصابيح في الداخل- لكنَّها ثابرتْ ، تمامًا كما كانت لتثابر مع ليسا . جعلنا صوت التهشُّم والضجيج نعدو نحو أكشاك الهاتف .

قالت ليسا كودي : «مُحطَّمة» .

سأل الجميع ليسا كيف فعلَتها ، لكنَّ كل ما قالته كان : «لديَّ ذراعان طويلان ، ونحيلان» .

اختفتْ ليسا كودي بعد يومين . تلاشت في مكان ما بين جناحنا والكافتيريا . لم يعثر عليها أحد قط ، مع أنَّ البحث قد استمر أكثر من أسبوع .

قالت ليسا : «لم تقوَ على تحمل هذا المكان» .

ورغم أننا حاولنا إيجاد إشارة على الغيرة من صوتها ، إلا أننا لم نجد شيئًا .

بعدها ببضعة أشهر ، هرَبتْ ليسا مجدَّداً أثناء اصطحابها إلى استشارة طب النساء في مستشفى ماساتشوستس العام : تمكَّنتْ من الهرب يومين هذه المرة . حين عادت ، بدت راضية جداً عن نفسها .

قالت : «رأيتُ ليسا كودي» .

قالت جورجينا : «أوووه» . هزَّت بولي رأسها .

قالت ليسا مبتسمة : «إنَّها مدمنة مخدرات حقيقية الآن» .

كنا نُدخِّن قاعدات على الأرض أمام محطَّة التمريض . يروق لنا القعود هناك ، فقد أمكننا بتلك الطريقة أن نراقب الممرضات .

قالت جورجينا : «يستحيل فعلها خلال فحوصات الخمس دقائق» .

قالت ليسا كودي : «أنا فعلتُها» .

قالت ليسا الحقيقيَّة : «كلا» وأردفتْ قائلة : «لم تفعلي» كانت قد بدأتْ للتوِّ حملتها ضد ليسا كودي .

عدَّلتْ ليسا كودي كلامها قائلة : «فعلتُها خلال فحوصات الخمس عشر دقيقة» .

قالت ليسا : «ربما خلال فحوصات الخمس عشر دقيقة» .

قالت جورجينا : «أوه ، فِعلُها خلال فحوصات الخمس عشر دقيقة لهو أمرٌ سهل» .

قالت ليسا : «ويد شاب» وأردفتْ : «سيمكنكِ فعلها خلال فحوصات الخمس عشر دقيقة» .

لم أجرب بعد . مع أن حبيبي قد هدأ من روعه بشأن وجودي في المستشفى وجاء ليزورني ، مسؤولة الفحوصات كشفتني وأنا أمنحه جنساً فمويًا ، فوُضِعنا في الزيارات المراقبة . لم يعد يزورني بعدها .

قلتُ : «لقد كشفوني» كان الجميع يعرف بأنهم سيكشفوني ، لكنِّي ظللتُ أذكر الأمر لأنه كان يضايقني .

قالت ليسا : «وإن يكن» وأردفتْ ضاحكةً : «تبًّا لهم ، تبًّا لهم ، وتبًّا لهم» .

قلتُ : «لا أظن بأنَّه قادرٌ على فعلها في غضون خمسة عشر دقيقة» .

قالت جورجينا : «لا للملهيات . لندخل في صلب الموضوع» .

ليسا سألتْ ليسا كودي : «من تعاشرين على أيَّة حال» ليسا كودي لم تجب . قالت ليسا : «إنَّكِ لا تعاشرين أحداً» .

قالت ديزي التي مرَّت بهم : «تبًّا لكِ!» .

قالت ليسا : «يا ديزي» وأردفتْ قائلة : «أسبق لكِ أن عاشرتِ خلال فحوصات الخمس دقائق؟»

قالت ديزي : «لا أريد أن أعاشر هؤلاء الحقيرين الموجودين هنا» .

همست ليسا : «أعذار» .

قالت ليسا كودي : «أنتِ لا تعاشرين أحداً» .

ابتسمت ليسا . «ستعيرني جورجينا ويد في وقت ما بعد الظهيرة» .

قالت : «كلُّ ما يتطلبه الأمر عشر دقائق» .

سألتُها : «ألم يكشفوا أمركن قط؟» .

«إنهم لا يهتمون . إنهم يحبون ويد» .

شرحت ليسا قائلة : «عليكِ أن تعاشري المرضى ، تخلَّصي من ذلك الحبيب الأحمق ، ولتحظي بحبيب مريض» .

قالت جورجينا : «صحيح ، ذلك الحبيب سيئ جداً» .

قالت ليسا كودي : «برأيي أنَّه ظريف» .

قالت ليسا : «إنَّه مثير للمشاكل» .

بدأتُ أتنشَّق .

ربتت جورجينا علي . وعلَّقتْ قائلة : «إنَّه لا يزور حتى» .

قالت ليسا : «هذا صحيح» وأردفتْ قائلة : «إنَّه ظريف ، لكنَّه لا يزور . ومن يخال نفسه بتلك اللكنة؟» .

«إنَّه إنجليزي ، وقد ترعرع في تونس» شعرتُ بأن هذين كانا مؤهِّلين مُهمين لأجل أن تصبح حبيبي .

نَصَحَتْ ليسا قائلة : «أعيدي إرساله إلى هناك» .

قالت ليسا كودي : «سأقبل به» .

حذَّرتُها قائلة : «لا يمكنه أن يعاشر خلال خمسة عشر دقيقة» وأردفتُ قائلة : «سيتوجَّب عليكِ أن تمنحيه جنساً فموياً» .

قالت ليسا كودي : «أيًّا يكن»

قالت ليسا : «أحبُّ ممارسة الجنس الفموي بين الفينة والأخرى» .

هزَّت جورجينا رأسها . «مالح جدًّا» .

قلتُ : «لا أمانع ذلك» .

سألتْ ليسا : «هل جرَّبتِ قطُّ واحدًا له طعمٌ مُرٌّ جدًا ، حامضٌ كالليمون ، لكنَّه أسوأ؟» .

قالت جورجينا : «هذا نوعٌ من أنواع التهابات الزب» .

قالت ليسا كودي : «مقرف!» .

قالتْ ليسا : «كلا ، إنَّه ليس التهابًا ، هذا ما يكون عليه طَعْمُ بعضهم فحسب» .

قلتُ : «أوه ، من يحتاجهم» .

قالت جورجينا : «سنعثر لكِ على رَجُل جديد في الكافيتيريا» .

قالتْ ليسا : «اجلبن معكن رِجالاً زيادة أثناء عودتكن» فما زلت محتجزة في الجناح .

واصلتْ جورجينا حديثها قائلة : «أنا واثقة من أنَّ ويد يعرف رَجُلاً لطيفًا» .

قلتُ : «فلننسَ الأمر» الحقيقةُ كانت أنِّي لا أريد حبيبًا مجنونًا .

نظرتْ ليسا نحوي . قالتْ : «أعرف ما تفكرين فيه ، أنتِ لا تريدين حبيبًا مجنونًا ، أليس كذلك؟» .

كنتُ محرَجة ، ولم أقل شيئًا .

أخبرتني قائلة : «سوف تتقبَّلين الأمر ؛ فما الخيارات التي لديكِ؟»

ضحك الجميع . حتى أنا كان عليَّ أن أضحك .

مدَّتْ مسؤولة الفحوصات رأسها خارج محطة التمريض وهزَّته أربع مرَّات ، مرة لكلِّ واحدةٍ منَّا .

قالتْ جورجينا : «فحوصات النصف ساعة ، هذا سيكون جيِّدًا» .

قالت ليسا كودي : «مليون دولار ستكون جيدة أيضًا» .

قالت ليسا : «يا لهذا المكان» .

تنهدنا جميعًا .

قال الطبيب بأن مدة مقابلتنا كانت ثلاث ساعات . أقول بأنها عشرون دقيقة . عشرون دقيقة بين دخولي من الباب وبين قراره إرسالي إلى مكلين . ربما قضيتُ ساعة أخرى في مكتبه أثناء اتصاله بالمستشفى ، واتصاله بوالدَي ، واتصاله بسيارة الأجرة . ساعة ونصف هي أقصى ما سأمنحه .

لا يمكن أن يكون كلانا على صواب . هل يهم أينا على صواب؟

هذا يهمني . لكن اتضح أني مخطئة .

أملك دليلاً دامغًا ، سطر الوقت المُدخَل في تقرير إدخال المريض الخاص بالمرضة . من خلال هذا يمكنني إعادة ترتيب كل الأحداث . كُتِب : 1: 30 مساءً .

قلتُ إني غادرتُ المنزل مبكرًا . لكن مبكرًا في قاموسي قد تعني وقتًا متأخرًا كالساعة التاسعة صباحًا . لقد بدَّلتُ بين الليل والنهار- كان هذا أحد الأمور التي أسهب الطبيب في الحديث عنها .

قلتُ إني كنتُ في مكتبه قبل الثامنة ، لكن يبدو بأني كنتُ مخطئة بشأن هذا أيضًا .

سأسوي الأمر بقولي إني غادرتُ المنزل في الساعة الثامنة ، وقضيتُ ساعة أثناء سفري إلى موعد يبدأ الساعة التاسعة تمامًا . عشرون دقيقة لاحقًا تصبح الساعة التاسعة وعشرين دقيقة .

الآن لننتقل إلى توصيلة سيارة الأجرة .

الرِّحلة من نوتن إلى بلمونت تستغرق قرابة نصف ساعة . وأتذكر أني انتظرتُ خمس عشرة دقيقة في مبنى الإدارة لأسجِّل وصولي . أضِف خمس عشرة دقيقة أخرى من الإجراءات الإداريَّة المعقدة قبل أن أصل إلى الممرضة التي كتبت ذلك التقرير ؛ بهذا يكون المجموع ساعة ، ممَّا يعني أنِّي وصلتُ للمستشفى الساعة الثانية عشرة وثلاثون دقيقة .

وها نحن ذا ، بين الساعة التاسعة وعشرين دقيقة والساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة مقابلة مدتها ثلاث ساعات!

ما زلتُ أرى بأنِّي على صواب ، أنا على صواب فيما يُهِم .

لكنَّكم الآن تصدقونه .

لا تتعجَّلوا ؛ لديَّ المزيد من الأدلة .

ملاحظة الإدخال التي كتبها الطَّبيب الذي كان مشرفًا على حالتي ، والذي من الواضح أنَّه أخذ تاريخًا مُوَسَّعًا قبل أن أصل إلى تلك الممرضة . في الزاوية اليمنى بالأعلى ، على سطر «ساعة الإدخال» ، كُتِب : 30 :11 صباحًا .

فلنُعِد ترتيب الأحداث مجدَّداً .

طرح النصف ساعة التي قضيتُها في انتظار إدخالي ، والإجراءات الإدارية المعقدة التي أُنجِْزَت بصعوبة ، سيقودنا إلى الساعة الحادية عشرة . طرح النصف ساعة التي قضيتُها في توصيلة سيارة الأجرة ، سيقودنا إلى الساعة العاشرة وثلاثين دقيقة . طرح الساعة التي انتظرتُ فيها حين كان الطبيب يجري المكالمات الهاتفية ، يقودنا إلى الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة . افتراضُ مغادرتي المنزل في الساعة الــــــــــثامنة لحضور موعدٍ يبدأ الساعة التاسعة نتيجته مقابلة مدتها نصف ساعة .

ها نحن أولاء ، بين الساعة التاسعة والساعة التاسعة وثلاثون دقيقة . لن أُمَاحِك على عشرة دقائق .

الآن أنتم تصدقونني .

سـرعـة الـحـركـة مـقـابـل الـلـزوجـة

يتمثَّل الجنون في نوعين رئيسين : البطيء والسريع .

أنا لا أتحدث عن البداية أو المدة ، بل أعني طبيعة الجنون ، أي الأعمال اليومية للمجانين .

توجد أسماءٌ كثيرة : الاكتئاب ، الجامود ، الهوس ، القلق ، التوتر . غير أنها لا تُنبِئُك بالكثير .

الصفة المهيمنة في الحالة البطيئة هي اللزوجة .

التجربة ثخينة . المُدرَكات تُثَخَّن وتُضَعَّف . الوقتُ بطيء ، يقطر ببطء من مرشح الإدراك المثخن المسدود . درجة حرارة الجسد منخفضة . النَّبض ضعيف . نظام المناعة نصف نائم . الأعضاء خاملة وكريهة . حتى ردود الفعل الذاتية متناقصة ، وكأن الساق السفلية لا ترغب بإخراج نفسها من سباتها حين تُنقَر الركبة .

اللزوجة تحدث في المستوى الخلوي . وكذلك السرعة .

على النقيض من غيبوبة اللزوجة الخلوية ، تمنح السرعة كل صفيحة دموية وليف عضلي تصرُّفًا ذاتيًا ، وهي وسيلة لمعرفة تصرفاتها الخاصَّة والتعليق عليها . يوجد إدراكٌ أكثر من اللازم ، وخلف وابل المدرَكات ، يوجد وابل من الأفكار حول المُدرَكات وحول حقيقة امتلاك المدرَكات .

الاستيعاب قد يقتلك! ما أعنيه هو أنَّ الفهم المتواصل لعملية الاستيعاب يمكن أن يرهقك حد الموت . والاستيعاب نشاطٌ إضافي لا إرادي للتفكير ، ومن هنا تبدأ المشكلة الحقيقية .

تأمَّل فكرةً- أيَّ فكرة هذا لا يهم . أشعر بالتعب من القعود هنا أمام محطة التمريض : فكرة معقولة تماماً . إليك ما تفعله السرعة بها .

أوَّلاً ، قَسِّم الجملة . أشعر بالتعب- حسنًا ، هل تشعر بالتعب حقًّا ، بالضَّبط؟ أهذا مثل شعور المرء بالنعاس؟ عليك أن تتفقد كل أجزاء جسدك للتأكد من وجود النعاس ، وأنت تفعل هذا ، يأتيك قصفٌ من مظاهر النعاس ، من بين هذه الأنواع : سقوط الرأس على الوسادة ، اصطدام الرأس بالوسادة ، وِنْكَنْ وبْلِنْكَنْ ونَادْ ، نيمو الصغير يفرك النوم من عينيه ، وحش بحر . يا إلهي ، وحش بحر . إن كنتَ محظوظًا ، فستتمكن من أن تتجنب فكرة وحش البحر ، وتلتزم بفكرة النعاس . الظهر على الوسادة ، ذكريات الإصابة بالنكاف في سن الخامسة ، إحساس الخدود المتورمة على الوسائد وألم سيلان اللعاب- توقف . عُد إلى النعاس .

لكنَّ فكرة سيلان اللعاب مغرية جداً ، والآن نذهب في رحلة قصيرة نحو الفم . فكرتَ بهذه الفكرة سابقا وقد كان الوضع سيئًا . إنَّه اللسان : ما إن تفكر باللسان حتى يصبح الأمر تطفلا : لِمَ اللسان كبيرٌ جداًّ؟ لِمَ هو خشنٌ من الجوانب؟ أهذا عوز الفيتامين؟ أيمكنك أن تزيل اللسان؟ ألن يكون الفم أقل إزعاجا بدونه؟ ستكون ثمة مساحة أكبر في الداخل .

اللسان ، الآن ، كل خلية في اللسان ضخمة . إنَّه شيء كبير وغريب في فمك .

محاولاً تقليص حجم لسانك ، تُـــــــــــرَكِّز انتباهك على مكوناته : الأسلة ناعمة ، الظهرُ غير مستو ، الجوانب خشنة ، كما ذُكر آنفًا (عوز الفيتامين) ، الجذور- مشكلة . إنَّ للِّسان جذورًا . لقد رأيتَها ، وإن وضعتَ إصبعك في فمك فسوف يمكنك تحسسها ، لكن لا يمكنك تحسسها باللسان . إنَّها مفارقة .

مفارقة . السلحفاة والأرنب . أخيل وماذا؟ السلحفاة؟ الوتر؟ اللسان؟

لنعد إلى اللسان . في حين لم تكن تفكر فيه ، تضاءل حجمه قليلاً . لكن تفكيرك فيه جعله يكبر مجدداً . لم جوانبه خشنة؟ أهذا عوز الفيتامين؟ فكرتَ بهذه الأفكار سابقا ، لكن أصبحت هذه الأفكار الآن عالقة في لسانك ، إنَّها تلتصق بوجود لسانك .

كل ما سبق استغرق أقل من دقيقة ، وما زال لدينا بقية الجملة لنفهمها . وكل ما أردتَه ، حقًّا ، هو أن تقرر ما إذا كنتَ ستقف أم لا .

اللزوجة والسرعة ضدان ، لكن يمكن أن يبدوا متطابقين . تسبِّب اللزوجة خمود النفور ، في حين تسبِّب السرعة خمود الافتتان . لا يمكن للرائي أن يتيقن ما إذا كان الشخص صامتًا لأن حياته الداخلية قد توقفت ، أو لأن حياته الداخلية حافلة بنحوٍ مبهر .

القاسم المشترك بين كليهما هو الأفكار المتكررة . المدرَكات تبدو مسجَّلة سلفا ، ومُؤَسلبة . ترتبط أنماط محدَّدة من الأفكار بحركات أو أنشطة محدَّدة ، وقبل أن تدرك ذلك ، يصبح من المستحيل أن تتحدَّثً عن تلك الحركة أو النشاط بدون إزاحة تيهور من الأفكار التي سبق التفكير بها .

تيهور نُوَامِيٌّ من الأفكار التركيبيَّة قد يستغرق أياماً ليسقط . إنَّ جزءاً من الركود الصامت للزوجة ينبع من معرفة كل تفصيل مما هو قادم ووجوب انتظار وصوله . ها هي فكرة «أنا عديمة الفائدة» قادمة ، التي ستتكفل بهذا اليوم ، سيتكرر حدوث التقطير المُلِحّ لفكرة «أنا عديمة الفائدة» طوال اليوم . الفكرة التالية ، في اليوم التالي ، هي «أنا ملَك الموت» . خلف هذه الفكرة مدى واسع من الذعر يتعذر الوصول إليه . تُسَطِّح اللزوجة فوران الذعر .

هذه الأفكار لا معنى لها . إنَّها أفكارٌ متكرِّرة غبيَّة توجد في دورة سابقة الترتيب : أنا عديمة الفائدة ، أنا مَلَك الموت ، أنا غبيَّة ، لا أجيد فعل أي شيء . التفكير بالفكرة الأولى يحفِّز الدائرة الكهربائية بأكملها . الأمر مشابه للإنفلونزا : أولاً حلقٌ ملتهب ، ثُمَّ ، كما هو متوقع ، أنف مسدود وسعال .

لا بد أنَّ لهذه الأفكار معنًى فيما مضى ، لا بد أنَّها تعني ما تدلُّ عليه ، إلا أن التكرار قد أضعفها . لقد أصبحتْ موسيقى تصويريَّة ، مزيجًا من موسيقى موزاك[4] تتمثل ألحانها الأساسيَّة في كره الذات .

أيُّهما أسوأ : الإرهاق أم الخمول؟ لحسن الحظ ، لم يجب علي قط أن أختار . فأحدهما سيُصِرُّ على ظهوره ، إما بالإسراع إليَّ وإما بالتقطير عبري ، وسينتقل .

ينتقل إلى أين؟ عائدًا إلى خلاياي ليتربص كالفيروس منتظرًا الفرصة التالية؟ خارجًا إلى أثير العالم لينتظر الظروف التي ستؤدي إلى عودة ظهوره؟ ذاتيُّ المنشأ أو خارجيُّ المنشأ ، الفطرة أو التربية– إنَّه اللغز العظيم للمرض العقلي .

[4] موسيقى تصويرية خفيفة مسجَّلة تُعزف في الأماكن العامة. (المترجمة)

قالت ليسا : «أنا بحاجة إلى بعض الهواء المنعش» كنا قاعدات على الأرضية مقابل محطة التمريض ، كالمعتاد .

مرَّتْ ديزي بجانبنا .

قالت : «أعطيني سيجارة» .

قالت ليسا : «احصلي على واحدةٍ بنفسكِ ، أيَّتها العاهرة» ثم أعطتها واحدة .

قالت ديزي : «سيجارة رديئة» كانت ليسا تدخِّن سجائرًا من ماركة كول .

كرَّرتْ ليسا : «أنا بحاجة إلى بعض الهواء المنعش» أطفأتْ سيجارتها على السجادة البرشاء ذات اللون البني والبني الفاتح ، ووقفتْ . «هيه!» أدخلتْ رأسها في محطة التمريض ، عبر النصف المفتوح من الباب الهولندي[5] .

«أنا بحاجة إلى بعض الهواء المنعش اللعين» .

قال صوتٌ من الداخل : «دقيقة واحدة فقط ، يا ليسا» .

---

[5] بابٌ مُقَسَّم أفقيًا، بحيث يمكن إغلاق الجزء السفلي أو العلوي على حدة. (المترجمة)

«الآن!» خبطتْ ليسا على الأسكفة التي كانت تفصل الجزئين العلوي والسفلي من الباب . «هذا غير قانوني . لا يمكنكم إبقاء شخص داخل مبنى أشهرًا . سوف أتصل بمحاميَّ» .

كانت ليسا غالبًا تهدِّد بالاتصال بمحاميها . تملك محاميًا عيَّنته المحكمة ، يبلغ من العمر نحو ستة وعشرين سنة ، وسيم ، ذو عينين لوزيتين . لم يتمكن من منع وضعها في المصحة . اسمه إروين . زعمتْ ليسا أنَّها ضاجعتهُ عدة مرات في مجلس المحامين والعملاء في دار القضاء .

كلما هدَّدتْ ليسا بالاتصال بمحاميها تدخَّلت رئيسة الممرضات .

الآن خرجتْ واتكأتْ على الأسكفة . قالتْ وقد بدا التعب في صوتها : «ما المشكلة ، يا ليسا؟»؟

«أنا بحاجة إلى بعض الهواء المنعش اللعين» .

قالت رئيسة الممرضات : «لستِ مضطرة للصراخ» .

«بأيِّ طريقة أخرى -بحقِّ اللعنة- سأتمكن من لفت الانتباه في هذا المكان؟» كانت ليسا دائمًا تسمي المستشفى «هذا المكان» .

قالت رئيسة الممرضات : «أنا أمامكِ مباشرة الآن» وأردفتْ قائلة : «أنا أعيركِ انتباهًا» .

«إذًا أنتِ تعرفين ما أريده» .

قالت رئيسة الممرضات : «سأجلب مساعدًا لفتح نافذتكِ» .

قالت ليسا : «نافذة» التفتتْ برهةً لتنظر إلينا . «أنا لستُ مهتمة بنافذة لعينة» خبطتْ الأسكفة مجدَّداً . تراجعتْ رئيسة الممرضات قليلاً .

قالت : «إما النافذة وإما لا شيء» .

قالت ليسا بنبرة رتيبة : «النافذة وإما لا شيء» مشتْ بضع خطوات في الممر ، فيمكن لجميعنا ، بما فينا رئيسة الممرضات ، أن نراها .

«أود فقط أن أرى كيف ستتدبرين أمركِ في هذا المكان ، حيث لا يسمح لكِ بالخروج أبداً ، بل لا يسمح لكِ حتى بأن تتنفسي هواءً منعشًا ، حيث لا تتمكنين أبداً من فتح نافذتكِ الخاصة اللعينة ، وحولكِ عاهراتٌ مخنثاتٌ يُملين عليكِ ما تفعلينه . يا فاليري ، حان وقتُ الغداء ، يا فاليري ، لستِ مضطرة للصراخ ، يا فاليري ، حان وقت أدوية نومكِ ، يا فاليري ، كُفي عن إساءة التصرف . أتعرفين؟ أعني ، كيف ستتدبرين أمركِ بحقِّ اللعنة ، هاه؟» .

كان اسم رئيسة الممرضات فاليري .

«أعني أنَّكِ لن تتحمَّلي عشر دقائق في هذا المكان» .

قالت ديزي : «أيتها العاهرة اللعينة» .

«من سألكِ؟» أشارت ليسا لديزي .

قالت ديزي : «أعطيني سيجارة» .

قالت ليسا : «احصلي على واحدة بنفسكِ» التفتتْ لرئيسة الممرضات . «سوف أتصل بمحاميٍّ» .

قالت رئيسة الممرضات : «حسنًا» كانت ذكية جدًا .

«تظنينني لا أملك حقوقًا؟ أهذا ما تظنينه؟» .

«هل عليَّ أن أصلكِ به على الهاتف؟» .

ليسا لوَّحتْ بذراعها رافضة . قالت : «لا ، لا . افتحي النافذة» .

قالت رئيسة الممرضات : «يا جودي» جودي هذه مساعدة شقراء شابة كنا نستمتع بإزعاجها .

صرختْ ليسا : «يا فاليري» كانت تنادي رئيسة الممرضات بفاليري فقط حين تكون مستاءة . «يا فاليري ، أريدكِ أنتِ أن تفتحي نافذتي» .

«أنا مشغولة يا ليسا» .

«سأتصل بمحاميِّي» .

«يمكن لجودي أن تقوم بذلك» .

«لا أريد تلك الساقطة المخنثة اللعينة في غرفتي» .

قالت رئيسة الممرضات : «أوه ، يا لكِ من مُضجِرة» ضغطتْ أزَّاز الأمن الذي فتح الجزء السفلي من الباب وخرجتْ إلى الممر معنا .

ابتسمتْ ليسا .

لتفتح نافذةً ، فإنَّ على موظفٍ أن يفتح الحاجز الأمني ، الذي كان شبكة منيعة على إطار فولاذي ، ثم يرفع النافذة الثقيلة ذات اللوح الزجاجي غير القابل للكسر ، ثم يغلق الحاجز الأمني ويعيد إقفاله . استغرق ذلك ثلاث دقائق ، وكان عملاً شاقًا من شاكلة الأعمال التي يقوم بها المساعدون . حين تُفتح النافذة ، قد يشق الهواء طريقه عبر شبكة الحاجز الأمني ، إن كان يومًا هواؤه عليلا .

عادت رئيسة الممرضات من غرفة ليسا ، مُحمَرَّةٌ قليلاً من الإجهاد . قالت : «حسنًا» طرقتْ على باب محطة التمريض ، لكي يُضغَط الأزَّاز الذي سيسمح لها بالعودة للداخل .

أشعلتْ ليسا سيجارة أخرى .

قالت رئيسة الممرضات : «نافذتكِ مفتوحة» .

قالت ليسا : «أنا على علم بذلك» .

تنهدَّتْ رئيسة الممرضات وقالت : «لن تدخلي حتى هناك ، أليس كذلك؟»,

قالت ليسا : «يا رفيقة ، هذا يزجي الوقت» جعلتْ مؤخرة سيجارتها الحارة تلامس ذراعها مدة ثانيةً . «أعني لقد استغرق ذلك عشرين دقيقة ، بل ربما نصف ساعة» .

ضُغِط الأزَّاز ، فتحتْ رئيسة الممرضات الباب ، دخلتْ ، واتكأتْ على الأَسكفة مجدداً .

قالت : «أجل ، هذا يزجي الوقت» .

قالت ديزي : «أعطيني سيجارة» .

قالت ليسا : «احصلي على واحدةٍ بنفسكِ ، أيَّتها العاهرة» ثم أعطتها واحدة .

كانت فاليري في الثلاثين من عمرها تقريبا . طويلة وذات ساقين وذراعين مستدقين . تشبه ليسا جداً ، مع أنَّها شقراء . كلتاهما ذواتا حوض طويل ونحيل ، ومفاصل مرنة . ليسا تجيد ثني نفسها بين الكراسي والزوايا ، وكذلك فاليري . حين تكون إحداهن مستاءة وتقحم نفسها بين مشعاع وجدار ، أو خلف حوض استحمام ، أو في منطقة صغيرة آمنة أخرى ، كان بمقدور فاليري أن تثني نفسها لحزمة متراصة وتجلس بجانبها .

شعر فاليري الأشقر جميل ، لكنَّها أبقته مخفيًا في ضفيرة لفَّتها على مؤخرة رأسها . تسريحة «الضفيرة داخل الكعكعة» لم تنفك أو تسقط من مكانها قط . في أوقات نادرة ، كان يمكن إقناع فاليري بأن تفك الكعكة وترينا الضفيرة التي تبلغ خصرها . فقط ليسا كانت قادرة على إقناعها بفعل هذا . لم تطلق سراح شعرها من الضفيرة قط ، مع أننا توسلنا إليها لتفعل ذلك .

كانت فاليري صارمة ومتشددة ، والموظفة الوحيدة التي نثق بها . وثقنا بها لأنها لم تكن خائفة منا . ولم تكن خائفة من الأطباء أيضاً . ليس لديها الكثير لتقوله حول أي شيء ، وكنا معجبات بها لهذا ، أيضاً .

وجب علينا أن نسمع الكثير من الكلام في ذلك المكان . ترى كل منا ثلاثة أطباء في اليوم : طبيب الجناح ، والطبيب المقيم ، ومعالجنا النفسي

الخاص . في الغالب علينا أن نصغي لأنفسنا ونحن نتحدث لهؤلاء الأطباء ، ولكنهم أنفسهم تحدثوا كثيراً .

لهم لغة خاصة : التراجع ، إساءة التصرف ، العِداء ، الانسحاب ، الانغماس في السلوك . هذه العبارة الأخيرة يمكن ربطها بأي نشاط وجعله يبدو مشبوها : الانغماس في سلوك الأكل ، أو سلوك الحديث ، أو سلوك الكتابة . في العالم الخارجي يأكل الناس ويتحدثون ويكتبون ، لكن ما عُدَّ أي أمر فعلناه عادياً .

كانت فاليري راحةً لنا من ذلك . العبارة الوحيدة التي استخدمتها هي إساءة التصرف ، وتستخدمها على نحو سليم ليكون معناها «إزعاجي ودفعي إلى الجنون» . وتقول عبارات من قبيل : «كُفي عن ذلك» و«أنتِ مُضجِرة» . تعني ما تقوله ، تماماً مثلما كنا نفعل .

كان الأطباء رجالاً ، أما الممرضات والمساعدات فكنَّ نساءً . ثمـــــــــو استثناءان : المساعد جيري ، والطبيبة ويك . كان جيري رشيقًا وقلِقًا . لديه مزحة واحدة جيِّدة . بين الفينة والأخرى ، يُسمح لمريضة تحظى بامتيازات عديدة بمغادرة المستشفى بسيارة أجرة . تلك المريضة ستقول : «يا جيري ، اطلب لي سيارة أجرة»[6] ليرد عليها جيري قائلاً : «أنتِ سيارة أجرة» . كانت تروق لنا النكتة .

[6] جملة "Call me a cab" تأتي بمعنى «اطلب لي سيارة أجرة» وتأتي بمعنى «نادني/انعتني/سَمِّني سيارة أجرة» (المترجمة)

أما الطبيبة ويك فحكاية أخرى .

الطبيبة ويك رئيسة جناحنا المُسَمَّى «ساوث بيلناب تو» . حملت الأجنحة أسماء مدارس داخلية مثل «إيست هاوس» و«ساوث بيلناب» ، وكانت الطبيبة ويك لتصبحَ رئيسة ممرضات مدرسة داخلية ماهرة . قَدِمَت من رودسيا وبدت كشبح حصان . حين تتكلم ، كان صوتها يبدو كحصان بعض الشيء أيضًا . لها صوتٌ خفيفٌ مُبَقْبِق ، ولكنتها الإنجليزية الاستعمارية أضفت على جملها إيقاع صهيل حصان .

بدت الطبيبة ويك ساذجة جداً فيما يتعلق بالثقافة الأمريكية مما جعلها اختيارًا غريبًا لرئاسة جناح فتيات مراهقات . وكان تُصدَم بسهولة من الأمور الجنسية . تجعل كلمة يضاجع وجهها الحصانيَّ شديد البياض يحمرُّ ، يحمرُّ كثيرًا حين تكون حولنا .

محادثة نموذجية مع الطبيبة ويك :

«صباح الخير . لقد استُنتج بأنكِ كنتِ لا إراديًا عابثة جنسيًا . أتودين أن تحدِّثيني عن الأمر؟» .

«لا» قررتُ بأن هذا أفضل جواب من الأجوبة السيئة العديدة .

«على سبيل المثال ، التعلق بمدرس اللغة الإنجليزية الذي درَّسكِ في المدرسة الثانوية» . دائما ما تستخدم الطبيبة ويك كلمات مثل التعلق .

«ماذا؟» .

«أتودين أن تحدِّثيني عن الأمر؟» .

«إم ، حسنًا ، لقد أوصلني إلى نيويورك» . كان ذلك حين أدركتُ بأنه كان معجبًا بي . لقد جلب معه غداءً نباتيًا ممتازًا لأجلي . «لكنَّ ذلك ليس حين حدث الأمر» .

«ماذا؟ حين حدث ماذا؟» .

«حين تضاجعنا» .

(احمرار) «أكملي كلامكِ»

«ذهبنا إلى متحف فريك . لم أذهب إلى هناك قبلاً . كان ثمة لوحة فيرمير تلك ، كما ترين ، تلك اللوحة المدهشة لفتاة تحظى بدرس موسيقى أنا فقط لم أستطع أن أصدق ما أدهشها»

«إذًا متى فعلتما -آه- متى حدث الأمر؟» .

ألا ترغب بسماع قصة لوحة فيرمير؟ هذا ما أذكره .

«ماذا؟» .

«الـ -آه- التعلق . كيف بدأ؟»

«أوه ، لاحقًا ، حين عدنا للمنزل» .

فجأة بتُّ أعرف ما تريده . «كنتُ في منزله فقد كنا نقيم اجتماعات لمناقشة الشِّعر في منزله ، ورحل الجميع ، بقينا فقط على الأريكة لوحدنا ، وسألني : «أتريدين أن نتضاجع؟» .

(احمرار) «استخدم تلك الكلمة؟» .

«أجل» لم يستخدمها . لقد قبَّلني . وقبَّلني في نيويورك أيضًا . ولكن لم عليَّ أن أخيِّب ظنها؟

كان هذا يُسَمَّى علاجًا نفسيًّا .

لحسن الحظ ، كان لدى الطبيبة ويك الكثير من الفتيات التي عليها الاعتناء بهن ، لذا فقد كان العلاج النفسي معها قصيراً ، ربما خمس دقائق في اليوم . لكن على أعقابها كان يأتي الطبيب المقيم .

ثمة استراحة قصيرة مدتها دقيقتين أو ثلاث بين مغادرة الطبيبة ويك ووصول الطبيب المقيم . خلال هذا الوقت يمكننا أن نفكر بأمور جديدة لقولها أو أن نصوغ شكاوى . تولَّى الأطباء المقيمون مسؤولية الامتيازات ، والأدوية ، والمكالمات الهاتفية- الشؤون اليومية التي لم تكن مهمة كفاية لتزعج الطبيبة ويك نفسها بالتعامل معها .

يُغيَّر الأطباء المقيمون كل ستة أشهر . لم نلبث أن شرعنا في معرفة كيفية التعامل مع طبيب مقيم حتى انتُزع منا واستُبدل بطبيب مقيم جديد عصي على الفهم . كانوا يبدأون بحزم وينتهون منهكين ومستعدين

للرحيل . قليل منهم بدأوا بعطف ، فانتهى بهم المطاف مستائين لأننا كنا نستغلهم .

محادثة نموذجية مع طبيب مقيم :

«صباح الخير ، كيف حال حركة أمعائكِ؟» .

«أريد أن أخرج من المجموعة ، أريد امتيازات الوجهة» .

«أتعانين من أية صداع؟» .

«أنا في المجموعة منذ ستة أشهر!» .

«قالت رئيسة الممرضات بأنكِ أسأتِ التصرف بعد الغداء أمس» .

«إنَّها تفتري علي» .

«هممم ، عِداء» دوَّن هذا بسرعة في مفكرة .

«أيمكنني أن أطلب التايلينول بدلاً من الأسبرين؟» .

«لا فرق بينهما» .

«يصيبني الأسبرين بالمغص» .

«أتعانين من الصداع؟» .

«أريده في حال أُصبتُ به» .

«هممم ، المراق» دون بسرعة مجددا .

لكن هذان الطبيبان هما المقبِّلات ، أما الطبق الرئيس فهو المعالج النفسي .

يقابل معظمنا معالجه النفسي كل يوم . لم تكن سينثيا كذلك ، فقد أُخضعت للعلاج النفسي مرتين أسبوعيا ، وللعلاج بالصدمات الكهربائية مرة أسبوعيا . ولم تكُ ليسا تذهب إلى العلاج النفسي . عندها معالج نفسي ، لكنه استغل ساعتها لكي يَقيل . إن كانت تشعر بالملل الشديد ، فستـــــــــــــطالب بأخذها لمكتبه حيث ستجده قائلاً على كرسيه ، لتقول : «أمسكتُ بك!» ثم تعود إلى الجناح . يتسكع بقيتنا يوما بعد يوم لينبش الماضي .

لم يكترث المعالجون النفسيون بحيواتنا اليومية .

يقول معالجي النفسي حين أشتكي من ديزي أو من ممرضة غبية : «لا تتحدَّثي عن المستشفى فلسنا هنا لنتحدث عن المستشفى» .

لم يكن بوسعهم منح أو إبطال الامتيازات ، أو مساعدتنا في التخلص من شريكات الغرف كريهات الرائحة ، أو منع المساعدين من إزعاجنا . السلطة الوحيدة التي تمتعوا بها هي سلطة تخديرنا . ثورازين ، ستيلازين ، ميليريل ، لبريوم ، فاليوم : أصدقاء المعالجين النفسيين . يمكن للطبيب المقيم أيضًا أن يُجبرنا على تناول تلك الأشياء في حالة «حرجة» . حين نعتاد على تناولها فإن تركها يصبح صعبًا . إنَّه أمر مشابه للهيروين ، باستثناء أن طاقم التمريض هم من أدمنوا تناولنا لها .

كان الطبيب المقيم ليقول : «أنتِ تبلين بلاءً حسنًا» .

هذا لأنَّ تلك الأشياء أفقدتنا الإحساس .

نصف دزينة من الممرضات ، بما فيهن فاليري ، ومساعد أو مساعدان يؤديان واجباتهم ذلك اليوم . يتكون طاقم التمريض الليلي من ثلاث نساء إيرلنديات ذوات صدور كبيرة مريحة ، ينادينا «عزيزتي» . أحيانًا ، تنادينا «حبيبتي» نساء سوداوات ذوات صدور كبيرة مريحة . ويحضننا طاقم التمريض الليلي حين نحتاج حضنا ، أما طاقم التمريض الصباحي فملتزمٌ بقانون منع التواصل الجسدي .

بين النهار والليل عالَمٌ غامض يسمى المساء ، يبدأ في الثالثة وخمس عشرة دقيقة ، حين يأوي طاقم التمريض النهاري إلى غرفة المعيشة ليثرثروا عنا مع طاقم التمريض الليلي . يخرج الجميع في الثالثة والنصف . لقد نُقلَت السُّلطة . منذ ذلك الوقت وحتى الحادية عشرة ، حين تتولى النساء المريحات زمام الأمور ، نكون في عهدة السيدة ميكويني .

ربما السيدة ميكويني هي من جعلت الغسق وقتًا خطرًا . لا يهمُّ في أيِّ موسم ، يبدأ الغسق عند وصولها في الثالثة وخمس عشرة دقيقة .

السيدة ميكويني مملة ، وبخيلة ، وضئيلة ، وعيناها صغيرتان ومتباعدتان . إن كانت الطبيبة ويك رئيسة ممرضات مدرسة داخلية متنكرة ، فإن السيدة ميكويني رئيسة ممرضات سجن غير متنكرة . لها شعر رمادي وخشن نُعِّم

بمصفف الشَّعر لتموُّجات تمسك بفروة رأسها مثل الشقيقة . ممرضاتُ الوجبة النهارية ، حاذياتٍ حذو فاليري ، ارتدين معاطف ممرضات مفكوكة الأزرار فوق ملابس الشارع . أما السيدة ميكويني فلم يكن لها نصيبٌ من هذا التبسُّط ؛ كانت ترتدي زيًا موحَّداً أبيض عتيقًا وحذائي ممرضة إسفنجيان بنعلين متموجين تطليهما باللون الأبيض كل أسبوع ، كان بوسعنا رؤية الطلاء يتشقق ويتقشر بين الاثنين والجمعة .

لم تكن السيدة ميكويني وفاليري على وفاق . وهذا مثيرٌ جداً للاهتمام ، مثل سماعك عَرَضًا شجاراً بين والديك . نظرتْ السيدة ميكويني إلى ثياب فاليري وشعرها بذات النظرة الاستنكارية التي نظرتْ بها إلينا ، وطقطقتْ أسنانها بنفاد صبر حين كانت فاليري تلم معطفها ومحفظتها وتغادر محطة التمريض في الثالثة والنصف . تجاهلتها فاليري . بإمكان فاليري تجاهل النَّاس بأسلوب واضح .

ما دامت فاليري موجودةً في الجناح ، فإننا نكره السيدة ميكويني بأمان . لكن ما إن يبتعد ظهرها الطويل المستدق عبر الممر وخارج الأبواب محكمة الإغلاق حتى تغمرنا كآبة مليئةٌ بالقلق : الآن أصبحت السيدة ميكويني هي المسيطرة .

سيطرتها ليست مطلقة ، لكنها قريبة من كونها مطلقة . وتتشاركها مع طبيب غامض تحت الطلب . لم تستدعه قط . قالت : «بوسعي تولي هذا الأمر» .

كانت واثقة بقدرتها على تولي الأمور أكثر منا . قُضِيتْ أمسياتٌ عديدةٌ في الجدال حول ما إن كان على الطبيب تحت الطلب أن يَحضر .

قالت السيدة ميكويني قرابة عشر مرات في الأمسية الواحدة : «سينبغي علينا فقط أن نتفق على ألا نتفق» عندها مخزون لا ينفد من الكليشيهات .

حين كانت السيدة ميكويني تقول : «سينبغي علينا فقط أن نتفق على ألا نتفق» أو «الأباريق الصغيرة لها آذان كبيرة»[7] أو «ابتسم وسيبتسم العالم معك ، ابكِ وستبكي وحدك» كانت تعلو وجهها ابتسامة خفيفة لكنها بهيجة .

من الواضح أنَّها مجنونة . كنا محبوسات ثماني ساعات في اليوم مع امرأةٍ مجنونة تكرهنا .

السيدة ميكويني امرأةً لا يمكن التنبؤ بأفعالها . تلوي وجهها بلا سبب أثناء توزيعها أدوية ما قبل النوم ثم تندفع عائدة إلى محطة التمريض بدون أن تتفوه بكلمة . علينا انتظارها لتهدأ قبل أن نحظى بشرابنا الليلي المخلوط بالدواء ، أحيانا ننتظر طويلاً بطول نصف ساعة .

كنا نشتكي لفاليري كل صباح من السيدة ميكويني ، مع أننا لم نقل قط أي شيء يخص انتظارنا لأدويتنا . نعرف أن السيدة ميكويني امرأة

---

[7] مثلٌ يُقال للكبار كي يتجنبوا ذكر حديث معين أمام الأطفال. (المترجمة)

مجنونة مضطرة لكسب قوت يومها . لم نحاول جعل شهادتها تُلغى ، كنا نريدها فقط بعيداً عن جناحنا .

لم تتعاطف فاليري مع شكاوينا .

قالت : «السيدة ميكويني محترفة ، إنها تزاول هذه المهنة منذ مدة أطول من مزاولتي لها» .

قالت جورجينا : «وإن يكن!» .

صرختْ ليسا : «إنَّها مخبولة!» .

قالت فاليري : «ليس عليكِ أن تصرخي يا ليسا فأنا بقربكِ» .

كنا جميعًا نحمي السيدة ميكويني بطريقة أو بأخرى .

لم تكن السيدة ميكويني وحدها من تحتاج إلى الحماية .

بين الفينة والأخرى ، ثمة سيل من الطالبات الممرضات . مُتنقِّلات ، يجتزن مستشفانا في طريقهن إلى غرف العمليات ووحدات الرعاية القلبية . تتبَّعن الممرضات الحقيقيات في مجموعة ، يسأل أسئلة ويعرقلن السير . كانت الممرضات يشتكين بقول شيء من قبيل : «أوه ، تيفاني تلك! إنها تلازمني مثل البرنقيل» ثم تسنح لنا الفرصة لقول : «هذا مزعج جداً ، أليس كذلك؟ أن تُتَتَبَّعن طوال الوقت» سيجب على الممرضات أن يوافقننا على هذه النقطة .

تبلغ الطالبات الممرضات من العمر نحو التاسعة عشرة أو العشرين : بذات أعمارنا . لهن وجوه نظيفة ومتلهفة ، وأزياء موحدة نظيفة ومكوية . أثارت براءتهن وعدم أهليتهن شفقتنا ، بعكس عدم أهلية المساعدين التي تثير احتقارنا . أحد أسباب ذلك هو أنَّ الطالبات الممرضات يبقين بضعة أسابيع فقط ، في حين يبقى المساعدون عديمي الأهلية سنوات على نحو متواصل . سبب هذا على نحو كبير ، مع ذلك ، أننا حين كنا ننظر إلى لطالبات الممرضات نبصر نسخاً بديلة لأنفسنا . يعشن حيوات كان من الممكن أن نعيشها إن لم ننشغل بكوننا مريضات نفسيات . يتشاركن الشقق ولديهن أحباء ويتكلمن عن الملابس . أردنا أن نحميهن ليتمكن من الاستمرار في عيش هذه الحيوات . كن وكيلاتنا .

أحببن التحدث إلينا . سألناهن عن الأفلام التي شاهدنها ، وكيف أبلين في امتحاناتهن ، ومتى سيتزوجن (لدى معظمهن للأسف خواتم خطوبة صغيرة) . كن يخبرننا بأي شيء- بأن الحبيب مصرٌّ على أن «يفعلاها» قبل الزفاف ، وبأن الأم كانت سكّيرة ، وبأنَّ الدرجات سيئة والمنحة الدراسية لن تتجدَّد .

أعطيناهن نصيحة جيدة . «استعملن واقيًا ذكريًا» ، «اتصلن بمنظمة مدمني الكحول المجهولين» ، «اجتهدن لبقية الفصل وارفعن درجاتكن» ، لاحقًا سيبلغننا : «كنتن على حق ، شكرًا جزيلاً» .

بذلنا جهدنا لكبح زمجراتنا ، وتمتماتنا ، ودموعنا ، حين كُنَّ حولنا . ثم ، لم يتعلمن شيئًا عن تمريض الرعاية النفسية . حين انتهين من مناوبتهن ،

كل ما أخذنه معهن كان نسخًا محسنة منا ، في المنتصف بين ذواتنا البائسة والحالة السويَّة التي رأيناها متجسدة فيهن .

لبعضنا ، كانت هذه أقرب مرحلة شفاءٍ يمكن أن نبلغها قط .

ما إن غادرنَ حتى عادت الأمور بسرعة إلى أسوأ مما كانت عليه غالبًا ، وانشغلتْ الممرضات الحقيقيات .

هكذا ، المسؤولات عنا . أما فيما يتعلق بلاقطات اللقى- على أي حال ، لا بد أن نكون لاقطات لُقانا .

لم يتوقف العالم لكوننا لم نعد فيه ؛ بعيدين عنه . ليلة بعد ليلة ، تسقط أجساد ضئيلة أرضًا على شاشة تلفازنا : السُّود ، والشُّبان ، والفيتناميون ، والفقراء- بعضهم ميِّت ، وبعضهم ضُربوا فحسب في الوقت الحاضر . ثمة المزيد منهم دائما ليحلوا محل الشهداء وينضموا إليهم الليلة التالية .

ثم جاء الزمن الذي بدأ يسقط فيها أرضًا النَّاس الذين عرفناهم- لم نعرفهم شخصيًا ، لكن نعرف من يكونون : مارتن لوثر كينج ، روبرت كينيدي . أكان هذا أشدَّ مدعاةً للخوف؟ قالت ليسا بأنَّه أمرٌ طبيعي . شرحتْ قائلة : «عليهم أن يقتلوهم وإلا لن تستقر الأوضاع أبدًا» .

لكن الأوضاع لم تكن تبشِّر بالاستقرار . يفعل الناس أمورًا كنا نتخيل فعلها : يستولون على الجامعات ويلغون الفصول ، ويصنعون منازل من صناديق الورق المقوى ويضعونها في طريق الناس ، ويخرجون ألسنتهم أمام رجال الشرطة .

كنا نشجعهم ، أولئك الناس الصغار في شاشة تلفازنا ، الذين كلما زاد عددهم تقلصوا حتى أصبحوا مجرد كتلة من النقاط تستولي على الجامعات وتخرج ألسنتها الصغيرة . ظننا بأنه في نهاية المطاف سوف تتحين لهم الفرصة لـ«تحريرنا» .

كنا نصرخ عليهم : «استمرُّوا!» .

لا تشمل الخيالات العواقب . كنا آمنات في مستشفانا الغالي ، حسن التجهيز ، محبوسات مع غضبنا وتمردنا . يسيرٌ علينا أن نقول «استمرُّوا!» فأسوأ ما كنا نلقاه هو قضاء وقت ما بعد الظهر في غرفة العزلة . عادةً ، كل ما كنا نتلقاه ابتسامة ، أو هزة رأس ، أو ملاحظة على سجلاتنا : «التماهي مع حركة الاحتجاجات» . تحطَّمتْ جماجمهم ، وأصيبتْ أعينهم بالكدمات ، وضُرِبتْ كُلْياتهم- وبعد ذلك ، حُبسوا مع غضبهم وتمردهم .

لذا استمر الأمر ، شهرٌ تلو الشهر من المعارك والشغب والمسيرات . كانت تلك أوقاتًا يسيرة على طاقم التمريض . لم نكن «نسيء التصرُّف» ؛ فكل شيء كان يُمثَّل لنا .[8]

لم نكن هادئات فحسب ، بل مترقبات . كان العالم على وشك أن ينقلب ، والخانعون على وشك أن يرثوا الأرض ، أو على نحوٍ أدق ، ينتزعونها من الأقوياء ، ونحن ، الأخنع والأضعف ، سنكون ورثة الأرض الفسيحة التي تشمل كل ما حُرمنا منه .

لكن هذا لم يحدث- لا لنا ولا لأي من أولئك المطالبين الآخرين بالأرض .

حين أبصرنا بوبي سيل مقيَّداً ومكعومًا في قاعة محكمة في شيكاغو ، أدركنا حينها بأنَّ العالم لن يتغير . كان مقيَّداً بالأغلال مثل العبد .

[8] عبارة Act out تأتي بمعنى «إساءة التصرف» وتأتي بمعنى «التمثيل». (المترجمة)

استاءت سينثيا على وجه الخصوص . قالت باكيةً : «إنهم يفعلون هذا بي!» . كان حقيقيًّا أنهم يربطونك بحبل ويضعون شيئا في فمك حين تتلقى الصدمة ، ليمنعوك من عض لسانك أثناء الاختلاج .

غضبت ليسا أيضًا ، لكن لسبب آخر . زمجرتْ على سينثيا قائلة : «ألا ترين الاختلاف؟ عليهم أن يكعموه لأنهم يخافون من أن يصدق الناس ما يقوله» .

نظرنا إليه ، رجلٌ أسمرُ ضئيلٌ مقيَّدٌ بالأغلال على شاشة تلفازنا يحظى بالشيء الوحيد الذي سينقصنا دومًا : المصداقية .

لكثير منا ، كان المستشفى ملجأ بقدر ما هو سجن . مع أننا قُطعنا عن العالم وعن كل المتاعب التي استمتعنا بإثارتها فيه ، كنا قد قُطِعنا أيضا عن المطالب والتوقعات التي جنَّنتنا . ما الذي سيُتَوقَّع منا الآَن ونحن متهرباتٌ من دفع الأجرة في مصحة نفسية؟

حمانا المستشفى من مختلف الظروف ، فقد كنا نقول لطاقم التمريض أن يرفضوا المكالمات الهاتفية أو الزيارات من أي شخص لا نرغب بالتحدث إليه ، بما في ذلك آباؤنا .

تنوح إحدانا قائلة : «أنا مستاءةٌ جداً!» ولن تضطر للتحدث مع أي كان ذلك الشخص .

ما دمنا مستعدات لأن نكون مستاءات ، لن نُرغم على العمل أو الذهاب للمدرسة . وبوسعنا التنصل من أي أمرٍ عدا الأكل وتناول أدويتنا .

بطريقة غريبة كنا حُرَّات . بلغنا النهاية . لم يبقَ لدينا مزيدٌ لنخسره . خصوصيتنا ، وحريتنا ، وكرامتنا : كلٌّ هذا قد اختفى وعُرِّينا إلى الحقائق الأساسية لذواتنا .

لأننا كنا عاريات ، احتجنا إلى الحماية ، والمستشفى حمانا . بالطبع ، المستشفى هو ما عرَّانا في المقام الأول- لكن هذا فقط يؤكد التزامه بحمايتنا .

وقد وفَّى المستشفى التزامه . شخصٌ ما من عائلتنا عليه أن يدفع مبلغًا كبيرًا من المال لأجل هذا : ستون دولار (دولارات ١٩٦٧) في اليوم فقط مقابل الغرفة ، أما المعالجة ، والأدوية ، والاستشارة فهي إضافية . تسعون يومًا المدة المعتادة لتغطية تأمين مستشفى الأمراض العقلية ، لكن تسعون يوما بالكاد كافية للشروع في زيارةٍ لمكلين . فحصي الطبي وحده استغرق تسعين يوما . سعر العديد من تخصصات التعليم الجامعي التي لم أرغب بها أُنفق على إدخالي المستشفى للعلاج .

إن توقفت عائلاتنا عن الدفع ، فإننا حينها نتوقف عن البقاء ، ونوضع عاريات في عالم لا نعرف الآن كيف نعيش فيه . كتابة شيك ، أو طلب رقم هاتف ، أو فتح نافذة ، أو إقفال باب- هذه فقط بعض الأمور التي نسينا كلنا كيف نفعلها .

عائلاتنا . المنطق السائد أنهم السبب في وجودنا هناك ، ومع ذلك ، كانوا غائبين تمامًا عن حيواتنا في المستشفى . تساءلنا : أكنا غائبات بذات القدر عن حياتهم في الخارج؟

المجانين يشبهون لاعبي القذف المختارين . عادة ما تكون عائلة بأكملها مجنونة ، لكن بما أنه لا يمكن لعائلة كاملة أن تدخل إلى المستشفى ، فإن

فرداً منها يُختار مجنوناً ويدخل هناك . ثم ، اعتماداً على ما تشعر به بقية العائلة ، إما أن يبقى ذلك الفرد في المستشفى وإما يُنتزع منه ، تأكيدَ أمرٍ يتعلق بالصحة العقلية للعائلة .

أكدت معظم العائلات على ذات الافتراض : لسنا مجانين بل هي المجنونة . استمرت هذه العائلات بالدفع .

لكن بعض العائلات عليها أن تؤكد ألا أحد من أفرادها مجنون ، وهذه العائلات هي من تهدد بالتوقف عن الدفع .

عائلة توري من هذا الصنف .

أحببنا جميعنا توري ، لأنها تتمتع بسلوك نبيل . وخطبها الوحيد هو الأمفيتامين . قضتْ سنتين تحقن نفسها بالأمفيتامين في المكسيك ، حيث كانت تعيش عائلتها . جعل الأمفيتامين وجهها شاحباً وصوتها متعَبًا ومتثاقلا- أو بالأحرى ، نقص الأمفيتامين هو ما جعلها هكذا .

كانت توري الشخص الوحيد الذي تحترمه ليسا ، ربما لأن الإبرة قاسم مشترك بينهما .

كان والدا توري كل بضعة أشهر يسافران بالـــــــــــطائرة من المكسيك إلى بوسطن ليوبخاها . كانت مجنونة ، جنَّنَتهُما ، وتتمارض ، لم يعد بإمكانهما تحمل ذلك ، وهلم جرا . بعدما يرحلان ، تعطينا توري تقريراً عما حدث بصوتها المتعب المتثاقل .

ثم قالت أمي : «جعلتِني سكِّيرة!» ثم قال أبي : «سأشاهدكِ وأنتِ ماكثة في هذا المكان إلى الأبد!» ثم نوعا ما تبادلا الأدوار ، وقالت أمي : «لستَ سوى مدمنة مخدرات!» وقال أبي : «لن أدفع لكِ كي تسترخي هنا ونحن نعاني!» .

سألتها جورجينا : «لماذا تقابلينهما؟» .

قالت توري : «أوه» .

قالت ليسا : «إن هذه طريقتهما في إظهار حبهما» يتواصل والداها لم معها قط .

وافقت الممرضاتُ ليسا . أخبرن توري بأنها ناضجة لقبولها برؤية والديها مع علمها بأنهما سوف يربكانها . استخدمت الممرضاتُ كلمة الإرباك حين يعنين التعنيف .

لم تكن توري مرتبكة . قالت : «لا أمانع وجودي في هذا المكان ، إنه استراحة من المكسيك» . في فم توري ، بدا وقع كلمة المكسيك أشبه بلعنة .

كانت لتقول : «المكسيك» وتهز رأسها .

في المكسيك منزل كبير له أروقة من الأمام والخلف ، ثمة خدم ، وشمس كل يوم ، وأمفيتامين للبيع في الدرغستور .

رأت ليسا بأن المكان من وصفها يبدو جيدا جدا .

قالت توري : «إنَّه الموت! العيش في المكسيك معناه أن تكوني ميتة وأن تحقني نفسكِ بالأمفيتامين لتشعري بأنَّكِ لستِ ميتة بالكامل . هذا كل شيء» .

تحاول فاليري أو ممرضة أخرى أحيانا أن تشرح لتوري بأنه يمكنها أن تكون في المكسيك بدون أن تذهب للدرغستور وتشتري الأمفيتامين .

قالت توري : «لم يسبق لكِ الذهاب إلى هناك» .

في آب ، اتصل والدا توري ليُخبراها بأنهما قادمان لأخذها .

قالت : «سيأخذانني للمنزل كي أموت» .

قالت جورجينا : «لن ندعكِ تذهبين» .

قلتُ : «هذا صحيح ، أليس كذلك يا ليسا؟» .

لم تَعِد ليسا بشيء .

«ماذا عسانا نفعل بهذا الشأن؟» .

قالت توري : «لا شيء» .

سألتُ فاليري بعد ظهر ذلك اليوم : «لن تسمحوا لوالدي توري بإعادتها للمكسيك ، أليس كذلك؟» .

قالت : «نحن هنا لحمايتكن» .

سألتُ ليسا ذلك المساء : «ما الذي يعنيه ذلك؟» .

قالت ليسا : «لا يعني شيئًا أبدًا» .

لما يقارب الأسبوع ، لم نسمع شيئًا من والدي توري . ثم اتصلا ليقولا بأنهما سيقابلانها في مطار بوسطن . لم يريدا أن يكلفا نفسيهما عناء القدوم للمستشفى لاصطحابها .

قالت ليسا : «يمكنكِ أن تقفزي من السيارة أثناء الطريق إلى المطار . في مكان ما في وسط المدينة . اركبي قطار الأنفاق» كانت متمرسة في التخطيط الهروبي .

قالت توري : «لا أملك أي مال» .

جمعنا أموالنا ، كان مع جورجينا اثنان وعشرون دولارا ، ومع بولي ثمانية عشر ، ومع ليسا اثنا عشر ، ومعي خمسة عشر وخمس وتسعون .

أخبرتها ليسا : «يمكنكِ العيش على هذا المبلغ أسابيع» .

قالت توري : «لأسبوع ربما» لكنها بدت أقل اكتئابا . أخذتْ المال ووضعته في حمالة صدرها ، فشكَّل كتلة لافتة للنظر . قالت : «شكرًا»

قالت ليسا : «ينبغي أن يكون لديكِ خطة . هل ستبقين هنا أو تغادرين البلدة؟ أرى أنه يجدر بكِ مغادرة البلدة فورا» .

«والذهاب إلى أين؟»

سألتها جورجينا : «أليس لديكِ أي أصدقاء في نيويورك؟»

هـزَّت تـوري رأسـهـا . «أعـرفـكـن ، وأعـرف بـعـض مـدمـنـي المخـدرات في المكسيك . هذا كل شيء» .

قالت ليسا : «ليسا كودي ، إنها مدمنة مخدرات ، سوف تستضيفكِ» .

قالت جورجينا : «إنها ليست أهلا للثقة» .

قلتُ : «ستنفق كل ذلك المال على المخدرات على أي حال» .

علَّقتْ توري قائلة : «قد أفعل ذلك أيضًا» .

قالت ليسا : «هذا مختلف ، فقد أعطيناه لكِ» .

قالت بولي : «لا تفعلي ، فلا فرق بين ذلك وبين عودتك إلى المكسيك» .

قالت توري : «صحيح» الآن بدتْ مكتئبة مجددًا .

قالت ليسا : «ما المشكلة؟» .

قالت توري : «لا أملك الجرأة ؛ لا يمكنني فعلها» .

قالت ليسا : «بلى ، يمكنكِ . فقط افتحي الباب حين تكون الإشارة حمراء وغادري على عجل . اهربي فحسب . يمكنكِ فعلها» .

قالت توري : «يمكنكِ أنتِ فعلها ، أما أنا فلا» .

قالت جورجينا : «عليكِ فعلها» .

قالت بولي : «أعرف أنه يمكنكِ فعلها» .

وضعتْ يدها الوردية البيضاء على كتف توري النحيل .

تساءلتُ إن كانت توري قادرة على فعلها .

في الصباح ، كانت ممرضتان تنتظران لاصطحاب توري للمطار .

همستْ ليسا لي قائلة : «لن ينجح هذا ، لن تفلت أبدًا من اثنتين»

قرَّرتْ أن تصطنع إلهاءً . والهدف إشغال عدد كافٍ من أفراد طاقم التمريض كيلا يبقى سوى ممرضة واحدة متاحة لاصطحاب توري إلى المطار .

صاحتْ ليسا قائلة : «هذا المكان اللعين!» وذهبتْ إلى الممر ، وشرعتْ تغلق أبواب الغرف بعنف . «كُلُوا خراء!» .

نجح الأمر . أغلقتْ فاليري الجزء العلوي من الباب الهولندي في محطة التمريض وعقدتْ اجتماعًا مع بقية طاقم التمريض حينما كانت ليسا تصيح وتغلق الأبواب بعنف . حين خرجن ، انتشرن على هيئة حل المشاكل .

قالت فاليري : «اهدئي يا ليسا . أين توري؟ حان وقت الذهاب . لنذهب» .

أوقفتْ ليسا دورتها . «هل ستأخذونها؟» .

كنا جميعًا نعرف أن لا أحد يقدر على الهروب من فاليري .

هزت فاليري رأسها . «لا ، الآن اهدئي يا ليسا» .

أغلقتْ ليسا بعنف بابًا آخر .

قالت فاليري : «هذا لن يفيد في شيء ، ولن يوقف شيئًا» .

شرعتُ في الكلام قائلة : «يا فاليري ، لقد وعدتِ-» .

قاطعتني فاليري قائلة : «أين توري؟ لننتهي من هذا الأمر فحسب» .

قالت توري : «أنا هنا» كانت تحمل حقيبة سفر ، وذراعها ترتعش مما جعل الحقيبة تصطدم بساقها .

قالت فاليري : «حسنًا» ومدتْ ذراعها داخل محطة التمريض ، وأخرجتْ كأس دواءٍ ممتلئًا . قالت : «اشربي هذا» .

صاحت ليسا من منتصف الممر قائلة : «ما هذا بحقِّ اللعنة؟» .

قالت فاليري : «سيهدئ توري فحسب ، شيءٌ ليهدئها» .

قالت توري : «أنا هادئة» قالت فاليري : «اشربي» .

صاحتْ ليسا قائلة : «لا تشربيه ، لا تفعليها يا توري» .

أمالت توري رأسها للخلف وشربتْ .

همهمتْ فاليري قائلة : «حمداً لله . جيد ، حسنًا ، انتهى الأمر» كانت ترتجف أيضا «حسنًا ، وداعًا يا عزيزتي توري ، وداعا الآن» .

كانت توري ستغادر حقيقةً ، ستركب الطيارة وتعود إلى المكسيك .

توقفتْ ليسا عن الخبط واقتربتْ لتقف مع بقيتنا . وقفنا حول محطة التمريض ننظر لتوري .

سألت ليسا فاليري : «هل أعطيتِها الذي ببالي؟» رفعتْ رأسها باتجاه رأس فاليري . «هل أعطيتِها ثورازين؟ هل هذا الذي أعطيتِها؟» .

لم تجبها فاليري ، لم تكن مضطرة لذلك . كانت عينا توري تتلألآن بالفعل . ابتعدتْ خطوة عنا وفقدتْ توازنها قليلا . أمسكتْ فاليري بمرفقها .

أخبرتْ توري قائلة : «لا بأس» .

قالت توري : «أعرف» ثُمَّ تنحنحتْ وقالت : «بالطبع» .

حملتْ الممرضة التي ستصطحبها إلى لمطار حقيبة السفر وقادتْ توري عبر الممر نحو الأبواب المزدوجة محكمة الإقفال .

ثم ما من شيء بعدها لفعله . ذهب مساعد إلى غرفة توري وأخذ يزيل الملاءات من السرير . عادت فاليري إلى داخل محطة التمريض . أغلقتْ ليسا بابا بعنف . وقف بقيتنا حيث كنا برهة من الزمن . ثم شاهدنا التلفاز حتى عادت الممرضة من المطار . سكتنا ، منصتات للاهتياج في محطة التمريض- ذلك النوع من الاهتياج الذي تُحدثه حالة هروب . لكن لم يحدث شيء .

ازداد اليوم سوءاً بعد هذا . لا يهم أين كنا ، فكل مكان كان مكانا خاطئا . كانت غرفة التلفاز حارَّة أكثر من اللازم ، وغرفة المعيشة غريبة أكثر من اللازم ، الأرضية المقابلة لمحطة التمريض لم تكن جيدة أيضًا . حاولنا أنا وجورجينا الجلوس في غرفتنا ، وهذا فظيعٌ أيضًا . كل غرفة باعثة للصدى ، وكبيرة ، وفارغة . وما من شيء بعدها لفعله فحسب .

حان وقت الغداء : شطيرة التونة بالجبن المذاب . من أرادها؟ نكره شطيرة التونة بالجبن المذاب .

بعد الغداء ، قالت بولي : «لنخطِّط فحسب على قضاء ساعة واحدة في غرفة المعيشة ، ثم ساعة واحدة أمام محطة التمريض ، وهكذا . في الأقل سيكون هذا جدولا» .

لم تكن ليسا مهتمة . لكن وافقنا أنا وجورجينا على تجربة الأمر .

بدأنا في غرفة المعيشة . استلقتْ كل منا على مقعد فينيليٍّ أصفر . الساعة الثانية في يوم سبت من شهر آب في جناح متوسط الحراسة في بلمونت . دخان السجائر القديمة ، المجلات القديمة ، سجادة خضراء منقطة ، خمس مقاعد فينيلية صفراء ، أريكة برتقالية مكسورة الظهر : لا يمكن أن تحسب المكان شيئًا سوى غرفة معيشة مستشفى أمراض عقلية .

قعدت على مقعدي الفينيليِّ الأصفر غير مُفكِّرة بتوري . بدلا من ذلك ، نظرتُ ليدي . خطر ببالي أن كفي تشبه كف قرد ؛ تغضُّن الخطوط الثلاثة التي تمر عبرها والطريقة التي انثنت بها أصابعي بدت مثل القرد في

نظري . إن مددتُ أصابعي ، فإن يدي تبدو بشرية أكثر ، لذا فعلتُ ذلك . لكن إبقاء أصابعي متباعدة أمر متعب . تركتها ترتخي ، ثم عادت فكرة القرد .

قلبتُ يدي بسرعة . ظهرها لم تكن أفضل بكثير . انتفختْ أوردتي– ربما لأنه يوم حارٌّ جداًا– والجلد المحيط ببراجمي متجعدٌ ولينٌ . إن حركتُ يدي ، فيمكنني أن أرى العظام الثلاث الطويلة الممتدة من الرسغ إلى المفاصل الأولى من أصابعي . أو ربما لم تكن تلك عظاما بل أوتار؟ نكزتُ إحداها ، كانت مرنة ، لذا في الأرجح كانت وترا . تحتها ، مع ذلك ، توجد عظام . على الأقل هذا ما رجوتُه .

نكزتُ أعمق لأتحسس العظام . كان العثور عليها صعبًا . أما إيجاد عظام البراجم فسهل ، لكني أردت أن أعثر على عظام اليد ، العظام الطويلة التي تبدأ من رسغي إلى أصابعي .

بدأتُ أشعر بالقلق ، أين كانت عظامي؟ وضعتُ يدي في فمي وعضضتُها ، لأرى إن كنتُ قد هشمتُ شيئًا قاسيًا . انزلق كل شيء مني . ثمة أعصاب ، وثمة أوعية دموية ، وثمة أوتار ، كل هذه الأشياء زَلِقة ومراوغة .

قلتُ : «تبًّا» .

لم تكن جورجينا وبولي منتبهتان .

أخذتُ أهرش ظهر يدي . خطتي أن أمسك بسديلة جلدية وأقشرها ، فقط لألقي نظرة . أردتُ أن أرى بأن يدي يد بشرية طبيعية فيها عظام . أصبحت يدي حمراء وبيضاء -نوعا ما مثل يدي بولي- لكني لم أستطع جعل جلدي يفتح ويُدخلني .

وضعتُ يدي في فمي وجعلتُ أمضغ . نجحتُ! فقاعة من الدم خرجتْ بالقرب من برجمي الأخير ، حيث ثقبتْ قاطعتي الجلد .

سألتني جورجينا : «ما الذي تفعلينه بحقِّ اللعنة؟» .

قلتُ : «أحاول الوصول إلى قعر هذا» .

«قعر ماذا؟» بدت جورجينا غاضبة .

قلتُ : «يدي» ملوحة بها في الأنحاء .

قطراتٌ من الدم سالت على رسغي .

قالت : «حسنًا ، كفي عن ذلك» .

قلتُ : «إنَّها يدي» كنتُ غاضبة أيضا . زقد بدأتُ أشعر بالتوتر جداً . يا إلهي ، فكرتُ ، ما من عظام هناك ، ما من شيء هناك .

سألتهما : «هل لدي أي عظام؟ هل لدي أي عظام؟ هل تظنان أن لدي أي عظام؟» لم يكن بمقدوري التوقف عن السؤال .

قالت بولي : «الجميع لديهم عظام» .

«لكن هل لدي أنا أي عظام؟» .

قالت جورجينا : «أنتِ تملكينها» ثم ركضت خارج الغرفة . عادت بعد نصف دقيقة مع فاليري .

قالت جورجينا مشيرة إلي : «انظري إليها» .

نظرتْ فاليري إلي ثم غادرتْ .

قلتُ : «أريد أن أراها فقط ، عليَّ فقط أن أتيقَّن» .

قالت جورجينا : «إنَّها موجودة بداخلكِ- أقسم لكِ» .

قلتُ فجأةً : «أنا لستُ بأمان» .

عادت فاليري ومعها كأسُ دواء ممتلئ .

قلتُ : «يا فاليري ، أنا لستُ بأمان» .

«فلتشربي هذا» أعطتني الكأس . كان بإمكاني أن أعرف أنه ثورازين من اللون . لم يسبق لي قط أن شربتُه . أملتُ رأسي للخلف وشربتُ .

كان دبقًا وحامضًا ويتصبَّب في معدتي . ظلَّ طعمه في حلقي . بلعتُ عدة مرات .

قلتُ : «أوه يا فاليري ، لقد وعدتِ-» ثم بدأ مفعول الثورازين . مثل جدار من الماء ، صلبٌ لكن لين .

قلتُ : «عجبًا!» لم أتمكن من سماع صوتي ذاته جيدا . قررتُ أن أقف ، لكن حين فعلتُ ؛ ألفيتُني على الأرض .

حملتني فاليري وجورجينا من ذراعيَّ واقتادتاني عبر الممر إلى غرفتنا . بدا ملمس ساقيَّ وقدميَّ مثل الحَشيَّات ، ضخمة جدًّا ومكتنزة . وملمس فاليري وجورجينا مثل الحشيات أيضا ، حشيات ضخمة ولينة تضغط جانبيَّ . كان ذلك مريحا .

سألتُ : «سأكون بخير ، أليس كذلك؟» كان صوتي بعيدًا جدًّا عني ولم أقل ما كنتُ أعنيه . ما عنيته أني الآن أصبحتُ بأمان ، الآن أصبحتُ مجنونة حقًّا ، وما من أحدٍ قادر على إخراجي من هناك .

صحة الأسنان

كنتُ في الكافيتيريا آكل رغيف اللحم حين حدث أمر غريب في فكّي . بدأ خدي ينتفخ . في الوقت الذي عدتُ فيه إلى الجناح كان لدي كرة تنس الطاولة على جانب وجهي .

قالت فاليري : «ضرس العقل» .

ذهبنا لرؤية طبيب الأسنان .

مكتبه في مبنى الإدارة ، حيث قعدتُ بهدوء منذ مدة طويلة منتظرة أن أُحبَس . كان طبيب الأسنان طويلاً ، ومتجهّمًا ، وقذرًا ، وعلى معطفه المختبري بُقَيعاتٌ من الدَّم ، وشاربه مثل شعر العانة . حين وضع أصابعه في فمي كان طعمها مثل شمع الأذن .

قال : «خُراج ، سأقتلعه فوراً» .

قلتُ : «لا» .

«لا ماذا؟» كان يبحث في صينية أدواته .

«لن أسمح» نظرتُ لفاليري . «لن أسمح لكِ بفعل ذلك» .

نظرتْ فاليري إلى خارج النافذة .

قالت : «يمكن كبحه ببعض المضادات الحيوية في الوقت الحالي» .

قال : «يمكن» نظر إلي . أظهرتُ له بقية أسناني . قال : «حسنا» .

في طريق عودتنا قالت فاليري : «كنتِ عاقلةً في تصرُّفكِ» .

مضى وقت طويل منذ أن سمعتُني أُنادى بأي كلمة إطرائية مثل عاقلة .
قلتُ : «بدا ذلك الرجل مثل بثرة» .

غمغمتْ فاليري لنفسها أثناء فتحها أبواب جناحنا المزدوجة : «علينا أوَّلاً احتواء الإصابة» .

في اليوم الأول من البنسلين ، تحوَّلتْ كرة تنس الطاولة إلى بِلية . بحلول اليوم التالي ، تحوَّلت البِلية إلى بِازلاء ، لكن ثمة طفحٌ جلدي على وجهي .

قالت فاليري : «ليس بمقدوركِ تأجيله» .

«ولا تتناولي البنسلين مجدَّداً ، أبداً» .

قلتُ : «لن أذهب» .

قالت : «سآخذكِ غداً إلى طبيب أسناني في بوسطن» .

كان الجميع متحمِّساً . هزَّتْ بولي يديها المُخطَّطَتَين وقالت : «بوسطن! ما الذي سترتدينه؟» قالت جورجينا : «يمكنكِ الذهاب إلى حفلة نهارية وتناول الفشار» قالت ليسا : «يمكنكِ أن تجلبي لي بعض المخدرات ، بالقرب من جوردن مارش هناك ذلك الرجل الذي يرتدي قبعة بيسبول زرقاء-» قالت سينثيا : «يمكنكِ أن تقفزي خارجا حين تكون الإشارة حمراء

وتغادري» واصلتْ ليسا قائلة : «اسمه اَسترو» كانت واقعية أكثر من سينثيا ؛ تعلم بأنِّي لن أغادر . «إنه يبيع الأمفيتامين بسعر زهيد» .

قلتُ : «أبدو مثل الصيدناني ، لا يمكنني فعل شيء» .

داخل سيارة الأجرة ، كنتُ متوترة جدا لدرجة تمنعني من النظر إلى بوسطن .

قال طبيب الأسنان : «انحني للخلفِ وعُدي لعشرة» قبل أن أبلغ الرقم أربعة كنتُ قد استويتُ في جلستي وفي فمي ثقب .

سألتُه : «أين اختفى؟» .

رفع سنِّي ، وقد كان ضخماً ، ومُدَمَّى ، ومدبَّباً ، ومجعداً .

لكني كنتُ أسأل عن الوقت . أستبق الأحداث . لقد ألقى بي في المستقبل ، ولم أعرف ماذا حلَّ بالوقت الذي بينهما .

سألتُ : «كم استغرق هذا؟» .

قال : «أوه ، لم يستغرق شيئًا/ وقت قصير» .

لم تشفِ إجابته غليلي . «نحو خمس ثوان؟ دقيقتان؟» .

ابتعَد عن الكرسي .

نادى قائلاً : «فاليري» .

قلتُ : «أنا بحاجة إلى معرفة الإجابة» .

قال : «لا سوائل ساخنة مدة أربع وعشرين ساعة» .

«مدة كم؟» .

«أربع وعشرون ساعة» .

دخلتْ فاليري ، وكانت رسميَّة جداً . «هيَّا انهضي ، لنذهب» .

قلتُ : «أنا بحاجة إلى معرفة كم استغرق هذا الأمر ، وهو يرفض إخباري» .

أعطتني نظرة من نظراتها الازدرائية . «لم يستغرق وقتا طويلا ، أوكد لكِ هذا» .

صرختُ قائلة : «إنَّه وقتي! إنَّه وقتي وأنا بحاجة إلى معرفة كم استغرق الأمر» .

قلَّب طبيب الأسنان عينيه ، وقال : «سأترككِ تتدبرين هذا الأمر» وغادر الغرفة .

قالت فاليري : «هيَّا ، لا تتسبَّبي لي بالمتاعب» .

«حسنًا» نهضتُ من كرسي طبيب الأسنان . «أنا لا أتسبَّب بالمتاعب لكِ ، بأي حال» .

داخل سيارة الأجرة ، قالت فاليري : «معي شيءٌ لكِ» .

كان سنِّي ، مُنَظَّفٌ قليلاً ، لكنَّه ضخمٌ وغريب .

قالت : «اختلستُه لكِ» .

«شكرًا ، فاليري ، هذه بادرةٌ لطيفة منكِ» لكنَّ السنَّ ليس ما أردتُه حقًّا . قلتُ : «أريد أن أعرف كم استغرق الأَمر ، فكما ترين يا فاليري ، لقد خسرتُ بعض الوقت ، وأنا بحاجة إلى معرفة المدة . أنا بحاجة إلى معرفة ذلك» .

ثم أخذتُ أبكي ، لم أرغب بذلك ، لكن لم أقوَ على منع نفسي .

ظهر اسمٌ جديدٌ على اللوح : أليس كاليس .

قالت جورجينا : «لنُخمِّن أمورًا عنها» .

قالت ليسا : «مجنونةٌ جديدة» .

سألتُ فاليري : «متى سوف تأتي؟» .

أشارت فاليري من على الممر نحو الأبواب . وها هي ذي ، أليس كاليس .

كانت شابة ، مثلنا ، ولم تبدُ مجنونة جدًا . نهضنا من الأرضيَّة لنحيِّيها بنحوٍ لائق .

قالت : «أنا أليس كاليس» لكنَّها نطقته كاليس .[9]

قالت جورجينا : «كاليه؟»

خزَّرتْ أليس كاليه-كاليس عينيها .

«ماذا؟» .

أخبرتُ جورجينا قائلةً : «يُنطَق كاليس» رأيتُ أنَّ من الوقاحة أن تلمِّح إلى أن أليس لا تعرف كيف تنطق اسمها .

---

[9] المتعارف عليه هو أن اسم Calais يُنطَق «كاليه» لذلك استغربن حين نطقَته «كاليس».

قالت جورجينا مجدَّداً : «كاليه؟» .

قَدِمتْ فاليري عند تلك النقطة لتُري أليس غرفتها .

قلتُ لجورجينا : «الأمر مشابه لاسم فِرْمُنْتْ ؛ نحن لا ننطقه فِغْمُنْ كما ينطقه الفرنسيُّون»

قالت ليسا : «علم الصوتيَّات» .

أليس كاليه-كاليس خجولة ، لكنَّها أحبَّتنا . غالبًا ما قعدت بجوارنا وتُنصتْ . رأت ليسا أنَّها مملة ، أما جورجينا فحاولت استدراجها في الحديث .

أخبرتْ أليس قائلةً : «أتعرفين بأنَّ هذا اسمٌ فرنسيٌّ؟ أعني كاليه» .

قالت أليس : «كاليس ، أهو كذلك؟» .

«أجل ، إنَّه مكانٌ في فرنسا . مكانٌ مشهور» .

«لماذا؟» .

قالت جورجينا : «كان مُلكًا لإنجلترا ، كحال أجزاءٍ كثيرة من فرنسا . ثم خسروه في حرب المئة عام . كاليه آخر مكان خسروه» .

وسَّعتْ أليس عينيها ، وقالت : «مئة عام!» .

من السهل إثارة دهشة أليس ، فقد كانت تجهل تقريبًا كل شيء ، ومتخلِّفةً في رأي ليسا .

ذات صباح كنا قاعدات في المطبخ نأكل خبزًا محمَّصًا بالعسل .

سألتْ أليس : «ما هذا؟» .

«خبزٌ محمَّصٌ بالعسل» .

قالت أليس : «لم أتناول عسلاً قط» .

كان هذا صاعقًا . من يمكنه أن يتخيل حياة مقيدة لدرجة يُستبعد فيها العسل؟

سألتُها : «قط؟» .

ناولتْها جورجينا قطعة . شاهدناها وهي تأكلها .

أخبرَتْنا قائلةً : «طعمها مثل النحل» .

سألتها ليسا : «ماذا تقصدين؟» .

«فَرويَّةٌ وواخزةٌ بعض الشيء- مثل النحل» .

قضمتُ قضمةً أخرى من خبزي المحمَّص . كان طعم العسل مثل العسل فحسب ، شيئًا لا أذكر أني ذقتُه للمرة الأولى .

لاحقًا في ذلك اليوم ، حين كانت أليس تخضع لاختبار رورشاخ بعيداً ، سألتُ : «كيف يمكن لبنت لم تأكل عسلاً قط أن تحظى بعائلة يمكنها تحمل تكلفة إدخالها إلى هنا؟» .

قالت جورجينا : «في الأرجح إنها مجنونة حقًا ومثيرة للاهتمام على نحوٍ لا يصدق ، لذا سمحوا لها بالدخول بمبلغ أقل من المعتاد» .

قالت ليسا : «أشك في هذا» .

ولعدة أسابيع ، لم تُقَدِّم أليس كاليه-كاليس أيَّ دليل على أنها مجنونة حقًا أو مثيرة للاهتمام . حتى جورجينا سئمتْ منها .

قالت جورجينا : «إنَّها لا تعرف شيئًا ، يبدو الأمر وكأنها قضت حياتها داخل خزانة» .

قالت ليسا : في الأرجح إنَّها فعلتْ ، محبوسةٌ في خزانة تأكل تشيريوز» .

سألتُ : «تقصدين أنَّ والديها احتجزاها هناك؟» .

قالت ليسا : «لِمَ لا؟ ففي النهاية ، لقد سمياها أليس كاليس[10]» .

كان هذا تفسيرًا أفضل من غيره للسبب ، بعد شهر تقريبا ، انفجرتْ أليس مثل بركان .

علَّقتْ جورجينا قائلة : «تلك الفتاة مفعمة بالطاقة» في نهاية الممر ، انبعث دويٌّ مكتومٌ ، وصراخٌ ، وأصوات ارتطام من غرفة العزلة .

في اليوم التالي ، حينما كنا جالسات على الأرضية تحت اللوح ، كانت أليس تسير أمامنا بين ممرضتين في طريقها نحو الحراسة المشددة . وجهها

---

[10] نطق اسم **Calais** (كاليس) يماثل نطق كلمة **Callous** وتعني عديم الرحمة.

منتفخ من البكاء والتعنيف . لم تنظر إلينا . مشغولة بأفكارها الخاصة المعقدة- يمكنك معرفة هذا من الطريقة التي تخزِّر بها عينيها وتحرك فمها .

كان اسمها قد أزيل من اللوح سريعا نوعا ما .

قالت ليسا : «أظن بأنَّها تكيَّفتْ مع الأجواء هناك» .

قالت جورجينا : «ينبغي علينا الذهاب لرؤيتها» .

رأت الممرضات أنَّ من اللطيف أننا رغبنا بزيارة أليس . حتى إنَّه كان مسموحًا لليسا بأن تذهب . لا بد أنهم رأوا أنها لا يمكن أن تتسبب المتاعب في الحراسة المشددة .

لم يبدُ المكان مميزا من الخارج . لم يكن في المكان أبواب إضافية . لكنه من الداخل مختلفٌ . كان للنوافذ شرائط منخلية مثل نوافذنا ، لكن ثمة قضبان أمام الشرائط المنخلية . قضبان صغيرة ، نحيلة وتفصل بينها عدة إنشات ، ومع ذلك ، ما تزال قضبانا . لم يكن للحمَّامات أبواب ، وليس للمراحيض مقاعد .

سألتُ ليسا : «لِمَ لا توجد مقاعد؟» .

«يمكن أن تقتلع إحداهن مقعداً وتخبط أحداً؟ لا أدري» .

لم تكن محطة التمريض مفتوحة كمحطة تمريضنا ، بل محوطة بزجاج عليه شبكة سلكية معدنية . والممرضات إما في الداخل وإما في الخارج . لا اتكاء على الباب الهولندي للدردشة في الحراسة المشددة .

ولم تكن الغرف غرفا حقًا . زنازين . غرف عزلة في الواقع . ما من شيءٍ فيها سوى حشيات مجردة فوقها ناس . بعكس غرفة عزلتنا ، كان لديهم نوافذ ، لكن النوافذ ضئيلة ، وعالية ، عليها شبكة سلكية معدنية إلزامية ، وحواجز أمنية ، وقضبان . معظم أبواب الغرف مفتوحة ، لذا أمكننا ونحن نسير عبر الممر لرؤية أليس رؤية أخريات مستلقيات على حشياتهن . بعضهن عاريات . بعضهن لسن على حشياتهن بل واقفات في زاوية أو متكورات قبالة جدار .

كان هذا كل شيء . هذا كل ما هو موجود . غرفٌ خاويةٌ صغيرةٌ ، وفي كلِّ غرفةٍ شخصٌ واحدٌ متكوِّر في مكان ما .

لم تكن رائحة غرفة أليس طيبة ؛ جدرانها مغطاة بشيء ما ، وكذلك هي . متقرفصة على حشيتها ، وعلى ذراعيها بقع .

قالت جورجينا : «مرحبًا ، أليس» .

همستْ ليسا لي قائلة : «هذا خراء ، كانت تدهن بخراءها في الأنحاء» .

وقفنا مكتوفات الأيدي خارج المدخل . لم نرغب بدخول الغرفة بسبب الرائحة . بدت أليس فتاةً أخرى ، كما لو كانت قد حصلتْ على وجه جديد . بدت بخير نوعا ما .

سألتْ جورجينا : «كيف حالكِ؟» .

قالت أليس : «لا بأس» كان صوتها خشنا . قالت : «صوتي خشن ؛ كنت أصرخ» .

قالت جورجينا : «صحيح» .

لم يقل أحدٌ شيئًا لدقيقة .

قالت أليس : «أنا أتحسَّن» .

قالت جورجينا : «جيد» .

خبطتْ ليسا بقدمها على مشمع الأرضية . كنتُ أشعر بالإعياء من محاولتي التنفس بدون استنشاق الرائحة .

قالت جورجينا : «إذًا ، جيِّد . نراكِ قريبًا ، حسنًا؟» .

قالت أليس : «شكرًا لمجيئكن» فكَّت يديها عن ركبتيها بضع ثوان لتلوِّح لنا .

اتجهنا لمحطة التمريض ، حيث ذهبتْ مرافقتنا لتتحدث مع طاقم التمريض الذين تعرفهم . لم نتمكن من رؤية ممرضتنا . طرقتْ جورجينا الزجاج . رفعتْ المناوبة عينيها وهزت رأسها لنا .

قلتُ : «أنا فقط أريد أن أخرج من هنا» .

طرقتْ جورجينا على الزجاج مجدَّدًا .

قالت بصوتٍ عال : «نريد العودة إلى س . ب . ٢» .

أومأتْ المناوبة رأسها ، لكن ممرضتنا لم تظهر .

قالت ليسا : «ربما خدعونا . سيتركوننا هنا» .

قلتُ : «هذا ليس مضحكًا» .

طرقتْ جورجينا طرقات أخرى متوالية على الزجاج .

قالت ليسا : «سأتدبر الأمر» أخرجتْ ولاعتها من جيبها وأشعلتْ سيجارة .

خرجتْ ممرضتان فوراً من محطة التمريض .

قالت إحداهما : «أعطيني هذه الولاعة» في حين انتزعتْ الأخرى السيجارة .

ابتسمتْ ليسا . «نحتاج مرافقتنا إلى لذهاب إلى س . ب . ٢» .

عادتْ الممرضات إلى داخل محطة التمريض .

«الولاعات ممنوعة في الحراسة المشددة . التدخين تحت المراقبة . كنتُ أعرف بأن هذا سيثيرهن» أخرجتْ ليسا سيجارة أخرى ، ثم أعادتها لعلبة السجائر .

خرجتْ ممرضتنا . قالت : «كانت هذه زيارة قصيرة ، كيف حال أليس؟» .

قالت جورجينا : «قالت بأنها تتحسن» .

قلتُ : «كان لديها خراء . . .» لكن لم أتمكن من وصفه .

أومأت ممرضتنا . «ليس بأمرٍ غير معتاد» .

غرفة المعيشة القبيحة ، غرف النوم المكتظة بالمكاتب والمقاعد والأغطية والوسائد ، مساعدٌ يتكئ على محطة التمريض متحدثا لبولي ، الطبشور الأبيض على طبقه تحت اللوح ينتظرنا لنسجل وصولنا : في المنزل مجدَّداً .

قلتُ : «أوه» متنهدة عدة مرات . لم أتمكن من إدخال هواء كافٍ ، أو إخراج الهواء بداخلي .

قالت جورجينا : «ما الذي تظنَّ أنه قد حدث لها على أي حال؟» .

قالت ليسا : «أمرٌ ما» .

قلتُ : «خراء على الجدار ، أوه ، يا ربَّاه . أيمكن أن يحدث هذا لنا؟» .

قالت جورجينا : «لقد قالت بأنها تتحسن» .

قالت ليسا : «كل شيء نسبي ، أحسب هذا» .

سألتُ : «لا يمكن أن يحدث ، أيمكن ذلك؟» .

قالت جورجينا : «لا تدعيه يحدث . لا تنسيه» .

محلِّلي النفسي ميِّت الآن . قبل أن يكون محللي النفسي ، كان معالجي النفسي ، وكنت مولعة به . المنظر من مكتبه في الدور الأول من مبنى جناح الحراسة المشددة يبعث على الراحة : أشجار ، رياح ، سماء . غالبًا ما اعتراني الصمت . ثمة صمتٌ قليل جدا في جناحنا . نظرتُ نحو الأشجار ولم أقل شيئًا ، ونظر إلي ولم يقل شيئًا . كان ذلك أنيسًا .

قال بين الفينة والأخرى شيئًا . ذات مرة ، نمتُ وقتًا قصيرا على الكرسي المقابل له ، بعد ليلة حافلة بالشجار والصراخ في جناحنا .

قال متفاخراً : «أنتِ ترغبين بالنوم معي» .

فتحتُ عينيَّ ونظرتُ إليه . شاحبٌ ، وأصابه القرع مبكرًا ، ولديه أكياس دهنية باهتة اللون تحت عينيه ، لم يكن شخصًا قد أرغب بالنوم معه .

في معظم الوقت ، مع ذلك ، كان شخصًا مقبولا . هدَّأني مكوثي في مكتبه دون الحاجة إلى تبرير أفعالي .

لكنه لم يكن قادرًا على ترك الأمور الجيدة كفاية على حالها . بدأ يسألني : «ما الذي تفكرين فيه؟» لم أعرف إطلاقا ما ينبغي علي قوله . رأسي فارغ وذلك يعجبني . ثم شرع يخبرني ما قد أكون أفكر به . كان ليقول : «تبدين حزينة اليوم» أو «اليوم ، تبدين حائرة بشأن أمر ما» .

بالطبع كنتُ حزينة وحائرة . فأنا في الثامنة عشر ، والفصل ربيع ، وأنا خلف القضبان .

أخيرًا ، قال أشياء خاطئة عديدة عني اضطررتُ لتصحيحها له ، وهذا ما أراده منذ البداية . أزعجني حصوله على مبتغاه . بعد كل شيء ، كنتُ أعرف بالفعل ما شعرتُ به ؛ إنه الشخص الذي لا يعرف .

اسمه ميلفن . شعرتُ بالسوء لأجله بسبب هذا .

غالبًا ما رأيته ، أثناء الطريق من جناحنا إلى جناح الحراسة المشددة ، يصل بسيارته إلى مكتبه . عادة ما يقود ستيشن واغن بألواح خشبية مزيفة ، لكن في بعض الأحيان يقود بويك سوداء أنيقة بنوافذ بيضويَّة وسقف فينيلي . ثم ذات يوم ، انطلق بسرعة أمامي بسيارة رياضية خضراء مستدقة اندفع بها نحو موضع ركن سيارته محدثا صريرا .

أخذتُ أضحك ، واقفة خارج مكتبه ، لأني فهمتُ أمرًا بشأنه ، وقد كان مضحكًا . ليس بوسعي الانتظار لأخبره وقتها .

حين دخلتُ مكتبه قلتُ : «أنت تملك ثلاث سيارات ، صحيح؟» .

أومأ برأسه .

«الستيشن واغن ، والسيدان ، والسيارة الرياضية» .

أومأ برأسه مجددا .

قلتُ : «إنها النَّفْس!» كنتُ متحمسة . «كما ترى ، الستيشن واغن تمثِّل الأنا ، قويٌّ ويُعتمد عليك ، والسيدان تمثِّل الأنا العليا ، لأنها ما تريد أن تبدو عليه ، ذو نفوذ ومثير للإعجاب ، والسيارة الرياضية تمثِّل الهُوَ- إنها تمثل الهُوَ لأنَّه يتعذَّر كبحها وسريعة وخطيرة وربما محرَّمة بعض الشيء» ابتسمتُ له . «إنها جديدة ، أليست كذلك؟ السيارة الرياضية؟» .

لم يومئ هذه المرة برأسه .

سألتُه : «ألا تراه أمراً عظيمًا؟ ألا تراه أمراً عظيمًا أن تكون سياراتك نَفْسُك؟» .

لم يقل شيئًا .

بعد هذه الحادثة بوقتٍ قصير ، ألحَّ عليَّ أن أذهب إلى التحليل النفسي .

كان ليقول : «نحن لا نحرز تقدما ؛ أرى بأن التحليل النفسي هو الخطوة التالية الملائمة» .

«لماذا سيكون مختلِفًا؟» أردتُ أن أعرف .

كان ليقول مجددا : «نحن لا نحرز تقدما» .

غيَّر أساليبه بعد عدة أسابيع .

قال : «أنتِ الفتاة الوحيدة في هذا المستشفى التي يمكنها تحمل تحليل نفسي» .

«أوه حقا؟ ولم ذلك؟» لم أصدِّقه ، لكنَّ الأمر مثير للاهتمام .

«أنتِ بحاجة إلى شخصية متكاملة جيدا إلى حدٍ ما بكي تخضعي للتحليل النفسي» .

عدتُ إلى الجناح ممتلئة بفكرة شخصيتي المتكاملة جيدا إلى حدٍ ما . لم أخبر أحداً ؛ سيُعَد ذلك تباهياً .

لو أني قلتُ لليسا : «أملك شخصية متكاملة جيدا إلى حد ما ، ولذلك سأذهب إلى التحليل النفسي مع ميلفن» لأصدرت أصواتا شبيهة بصوت التقيؤ وتقول : «أوغاد! سيقولون أي شيء!» ولم أكن لأفعلها .

لكني احتفظتُ بالأمر لنفسي . لقد مدحني -يفهمني كفايةً ليعلم أني أشتهي المديح- وتعبيرا عن امتناني ، وافقتُ .

نظري ، الآن ، مصوب نحو جدار ، جدار أزهرٌ ، رتيب . لا أشجار ، لا ميلفن ينظر إلي بصبر وأنا أشيح ببصري . يمكنني الشعور بحضوره ، مع ذلك ، فهو بارد وقاسٍ . الأشياء الوحيدة التي قالها كانت : «نعم؟» و«أيمكنكِ قول المزيد عن ذلك؟» إن قلتُ : «أكره النظر نحو هذا الجدار اللعين» لقال : «أيمكنكِ قول المزيد عن ذلك؟» إن قلتُ : «أكره أشياء التحليل النفسي هذه» لقال : «نعم؟» .

سألتُه ذات مرة : «لماذا أنت مختلف جداً؟ اعتدتَ أن تكون صديقي» .

«أيمكنكِ قول المزيد عن ذلك؟» .

بدأتُ التحليل النفسي في تشرين الثاني ، حين ما زلتُ في المجموعة . انضممتُ خمس مرات في الأسبوع إلى حشد من المريضات متجه نحو الأطباء تقوده ممرضة . لكن معظم مكاتب الأطباء في مبنى الإدارة ، وهو في الاتجاه المعاكس لجناح الحراسة المشددة . لذا كوني في المجموعة أشبه بكوني عالقة في طريق حافلات مزعج . تذمرتُ . وحصلتُ على امتيازات الوجهة .

الآن بدأتْ ساعتي باتصال هاتفي على محطة التمريض لأقول بأني وصلتُ إلى مكتب ميلفن . انتهتْ باتصالي لأقول بأني مغادرة .

لم يحب ميلفن موضوع الهاتف . كان ينظر بطرف عينه وأنا أتحدث على الهاتف . أبقى الهاتف قريبا منه على مكتبه . وجب عليَّ أن أطلب منه كل يوم أن يدفعه نحوي كي أتمكن من استخدامه .

ربما تذمر ، لأني حصلتُ سريعا على امتياز الأراضي- للمعالجة فقط ، لكنه أمر جيد . أما في الأنشطة الأخرى فما أزال في المجموعة .

بسبب هذا في كانون الأول ، حين انضممتُ لجورجينا وغيرها ذاهبات إلى الكافيتيريا لتناول العشاء ، اكتشفتُ الأنفاق .

نقول إن كولومبوس اكتشف أمريكا ونيوتن اكتشف الجاذبية ، كأن أمريكا والجاذبية لم يكن لهما وجود حتى سمع كولومبوس ونيوتن شائعات عنهما . هذا شعوري اتجاه الأنفاق . لم يكن وجودها معلومة جديدة لأي

شخص آخر ، لكنها أحدثت تأثيرا بليغا فيَّ لدرجة أني شعرتُ بأني قد استحضرتُها للوجود .

كان يومًا ديسمبريًّا عاديًّا في منطقة بوسطن : غيوم بلون القصدير تَرُذُّ قُطَيرات مخلوطة بندف ثلج مسطحة مائية وريحٌ كافية لجعلك تجفل .

قالت الممرضة : «أروقة» .

خارج الأبواب المزدوجة محكمة الإغلاق وأسفل السلالم كالعادة- جناحنا كان على الطابق الثاني للحراسة الإضافية . ثمة العديد من الأبواب في الرواق ، وإحداها يؤدي إلى الخارج . فتحتْ الممرضة بابا آخر ، ونزلنا طابقا آخر من السلالم . ثم أضحينا في الأنفاق .

أوَّلاً ، رائحتها المذهلة : رائحتها مثل الملابس المغسولة ، نظيفة وساخنة وفيها شحنة يسيرة من الكهرباء ، مثل أسلاكٍ مُدَفَّأة . ثم درجة حرارتها : ثمانون في الحد الأدنى ، وهذا حين تكون درجةً الحرارة ثلاث وثلاثون في الخارج ، في الأرجح خمس وعشرون مع برد الرياح (مع أنَّه في الستينات البريئة ، برد الرياح ، مثل الوقت الرقمي ، لم يُكتشف بعد) . ضوؤها الأصفر المرتعد ، جدرانها الطويلة المبلطة بالأصفر وآزاجُها ، تشعباتها ومنعطفاتها وطرقاتها التي لم تُسلَك ، والتي تغري فتحاتها الصفراء مثل أفواه مفتوحة لامعة . هنا وهناك ، على بلاطات بيضاء مغروسة في الأصفر ، عمود اتجاهات : الكافيتيريا ، الإدارة ، مبنى الشرق .

قلتُ : «هذا عظيم» .

سألتْ جورجينا : «ألم يسبق لكِ النزول إلى هنا؟» .

سألتُ الممرضة : «هل تمتدُّ هذه [الأنفاق] تحت المستشفى بأكمله؟» .

قالت : «نعم ، يمكنكِ الذهاب إلى أي مكان . لكن من السهل أن تضيعي» .

«ماذا عن اللافتات؟» .

«في الحقيقة ليس ثمة ما يكفي منها» ضحكتْ ، كانت ممرضة محترمة اسمها روث . لفتتْ انتباهي قائلة : «هذه اللافتة مكتوب عليها مبنى الشرق ، لكنكِ بعدها تصلين إلى تشعُّب ولا توجد لافتة أخرى» .

«ماذا تفعلين حينها؟» .

قالت : «عليكِ فقط أن تعرفي الطريق» .

سألتُ : «أيسمح لي بالنزول إلى هنا وحدي؟» لم أتفاجأ حين أخبرتني روث بأنه لا يسمح لي بذلك .

أصبحتْ الأنفاق هوسي .

كنتُ أسأل كل يوم : «هل من أحدٍ متفرِّغ يصطحبني إلى الأنفاق؟» مرة أسبوعيًا تقريبا ، يصطحبني أحدهم .

وها هي ذي هناك ، دائما ساخنة ونظيفة وصفراء وذات مستقبل واعد ، تنبض دائما بالتدفئة وأنابيب الماء التي غنَّت وصفَّرت أثناء قيامها

بعملها . كل شيء مترابط ، كل شيء يسير في مساره الخاص إلى حيثما يؤدي .

قلتُ لروث ذات يوم حين اصطحبتني إلى الأسفل هناك : «الأمر يشبه كونكِ في خريطة- لا أقصد قراءة خريطة ، بل أنكِ داخل خريطة . مثل خطة شيء ما بدلا من الشيء ذاته» لم تقل شيئًا ، وأدرك أنه ينبغي علي أن أكف عن الحديث بهذا الموضوع ، لكنني لم أقدر على ذلك . «إنَّ المكان بالأسفل هنا أشبه بجوهر المستشفى- أتفهمين ما أقصده؟» .

قالت روث : «انتهى الوقت ، علي مسؤولية الفحوصات بعد عشر دقائق» .

سألتُ في شهر شباط ميلفن : «أتعرف تلك الأنفاق؟» .

«أيمكنكِ إخباري المزيد عن الأنفاق؟» .

لم يكن يعلم بوجودها ، فلو كان يعلم بوجودها لقال : «نعم؟» .

«توجد أنفاقٌ تحت هذا المستشفى بأكمله . كل شيء متصل بالأنفاق . يمكنك دخولها والذهاب إلى أي مكان . إنه مكان دافئ ومريح وهادئ» .

قال ميلفن : «رحم» .

قلتُ : «ليس رحما» .

«نعم» .

حين قال ميلفن نعم بدون تنغيم يدل على قصد السؤال ، فهو يعني لا .

قلتُ : «إنَّه عكس الرَّحم ، فالرَّحم لا يؤدي إلى أي مكان . فكرتُ مليًّا حول كيفية شرح الأنفاق لميلفن . «المستشفى هو الرَّحم ، كما ترى . لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان ، إنه مزعج ، وأنت عالق . الأنفاق مثل مستشفى بدون إزعاج» .

لم يقل شيئا ولم أقل شيئا . ثم خطرت لي فكرة أخرى .

«هل تتذكر الظلال على جدار الكهف؟» .

«نعم» .

لم يكن يتذكرها . «قال أفلاطون بأنَّ كل شيء في العالم ما هو إلا ظِلٌّ لشيء حقيقي لا يمكننا رؤيته . والشيء الحقيقي ليس مثل الظل ، إنها مسألة أشبه بالشيء وجوهره ، مثل . . .» لم أتمكن من معرفة ماذا برهةً . «مثل طاولة ضخمة» .

«أيمكنكِ قول المزيد عن ذلك؟» .

لم تكن الطاولة الضخمة مثالاً جيِّدًا . قلتُ : «إنه مثل العُصاب» اختلقت هذا . «مثلما يحدث حين تغضب ، وغضبك هو الشيء الحقيقي ، والذي يظهر هو خوفك من أن تعضك الكلاب ، لكن ما تريده حقا هو أن تعضَّ الجميع . أنت تعرف؟» .

بعدما قلتُ ذلك ، رأيتُ بأنه كان قولا مقنعًا جدا .

سأل ميلفن : «لم أنتِ غاضبة؟» .

مات صغيراً من سكتة دماغية . كنتُ أول مرضاه في التحليل النفسي ، اكتشفتُ ذلك بعدما كففتُ عن الخضوع للتحليل النفسي . بعد سنة من خروجي من المستشفى ، كففتُ [عن الذهاب إلى الأنفاق] . طفح كيلي ، أخيراً ، من إهدار وقتي في الظلال .

للمستشفى عنوان ، ١١٥ شارع ميل . وهذا لتوفير شيء من الضمان في حال كانت إحدانا سليمة كفاية لتتقدم لوظيفة وهي لا تزال مسجونة . يوفر حماية بقدر ما قد توفره ١٦٠٠ جادَّة بنسلفانيا من حماية .

«لنرى ، تسعة عشر عاما ، تعيشين في ١٦٠٠ جادَّة بنسلفانيا- هيه! هذا البيت الأبيض!» .

هذا نوع النظرات التي تلقيناها من أرباب العمل المحتَمَلين ، باستثناء أنها لم تكن سارة .

في ماساتشوستس ، ١١٥ شارع ميل عنوان شهير . التقدم لوظيفة ، استئجار شقة ، الحصول على رخصة قيادة : كلها أمورٌ مشكلة . حتى إن نموذج طلب رخصة القيادة فيه سؤال يقول : هل سبق أن أدخلت إلى المستشفى بسبب مرض عقلي؟ أوه ، كلا ، أنا فقط أحببتُ بيلمونت جداً لدرجة أني قررتُ الانتقال إلى ١١٥ شارع ميل .

قال شخص ضئيلٌ لون بشرته كلون بشرة من يسكن في القبو يدير متجرا للوازم الخياطة في ساحة هارفارد حيث كنتُ أحاول الحصول على عمل : «أنتِ تعيشين في شارع ميل واحد خمسة عشر؟» .

«نعم» .

«ومنذ متى وأنتِ تعيشين هناك؟» .

«أوه ، منذ مدة» أشرتُ إلى الماضي بيد واحدة .

«وأحسب أنكِ لم تعملي منذ مدة؟» انحنى للخلف ، مُتِّعًا نفسه .

قلتُ : «لا ، كنتُ أفكر مليًّا لاتخاذ قرار»

لم أحصل على الوظيفة .

أثناء مغادرتي إلى المتجر لمحتْ عينيَّ عينيه ، ورمقني بنظرةٍ تدلُّ على ألفةٍ شديدة جعلتني أنكمش . قالت نظرته : أعلم ما تكونين .

ما الذي كنا عليه ومكَّنهم من تمييزنا سريعا وجيداً جدًّا؟

كنا في الأرجح أفضل مما كنا عليه قبل دخولنا للمستشفى . في الحد الأدنى كنا أكبر وأكثر وعيا لذواتنا . أمضتْ الكثيراتُ منا سنواتنا في المستشفى بالصراخ والتسبب بالمتاعب وكُنَّ مستعدات للانتقال لأمر آخر . تعلَّمنا كلنا عَرَضًا تقدير الحرية وسنفعل أي أمر بمقدورنا فعله لنيلها والحفاظ عليها .

كان السؤال هو : ما الذي يمكننا فعله؟ أيمكننا النهوض كل صباح والاستحمام وارتداء الثياب والذهاب إلى العمل؟ أيمكننا التفكير بعقلانية؟ أيمكننا الامتناع عن قول أشياء مجنونة حين تخطر ببالنا؟

منا من كانت قادرة على ذلك ، ومنا من لم تكن . ومع ذلك ، في نظر العالم ، كنا موصومات جميعًا .

ثمة شيءٌ من الجاذبية دائما في الاشمئزاز : أيمكن أن يحدث هذا لي؟ كلما قلَّت احتمالية حدوث الأمر الفظيع ؛ قلَّ رعب النظر إليه أو تخيله . مَن لا تكلم نفسها أو تحدق في العدم هي مثيرة للقلق أكثر ممَّن تفعل تلك الأمور . من تتصرف «بطبيعية» تطرح السؤال المزعج : ما الفرق بيني وبين ذلك الشخص؟ والذي يقودنا إلى السؤال التالي : ما الذي يبقيني خارج مستشفى الأمراض العقلية؟ هذا يفسر لماذا تعدُّ الوصمة العامة مفيدة .

بعض الناس مذعورين أكثر من غيرهم .

«قضيتِ قرابة السنتين في مستشفى أمراض عقلية! لماذا بحق العالم كنتِ هناك؟ لا يمكنني تصديق ذلك!» الترجمة : إن كنتِ مجنونة ، فأنا مجنونة ، وأنا لستُ كذلك ، لذا لا بد أن الأمر برمته كان خطأً .

«قضيتِ قرابة السنتين في مستشفى أمراض عقلية؟ ما كان خطبكِ؟» الترجمة : عليَّ معرفة تفاصيل الجنون ليكون بوسعي أن أضمن أني لست مجنونة .

«قضيتِ قرابة السنتين في مستشفى أمراض عقلية؟ هممم . متى كان هذا بالضبط؟» الترجمة : هل ما زلتِ معدية؟

توقفتُ عن إخبار الناس . ما كان هناك من ميزة في إخبار الناس . كلما طال عدم قولي أي شيء عن الموضوع ، زاد الموضوع ابتعاداً ، حتى أصبحتْ نفسي التي كانت في المستشفى بقعة ضئيلة ونفسي التي لم تتكلم عن الموضوع كبيرة وقوية ومشغولة .

بدأتُ أشعر بالاشمئزاز أيضًا . المجانين : كنتُ أجيد العثور عليهم ولم أرد أن تكون لي أي علاقة بهم . ما زلتُ لا أرغب بذلك . لا يمكنني التفكير بأجوبة مطمئنة للأسئلة الفظيعة التي يطرحونها .

لا تسألوني تلك الأسئلة! لا تسألوني ما معنى الحياة أو كيف نميِّز الواقع أو لماذا علينا أن نعاني كثيراً . لا تتكلموا عن كيف أن لا شيء يبدو حقيقيًا ، كيف أن كل شيء مغطى بالجيلاتين ويلمع كالزيت تحت الشمس . لا أريد أن أسمع عن النمر الذي في الزاوية ، أو عن ملاك الموت ، أو عن المكالمات الهاتفية من يوحنا المعمدان . قد يتصل بي أيضًا . لكني لن أرفع سماعة الهاتف .

إن كنتُ أنا التي كانت سابقًا مثيرة للاشمئزاز قد أصبحتُ الآن بهذا البعد عن نفسي المجنونة ، فما مدى بُعدك أنت يا من لم تكن قط مثيرا للاشمئزاز ، ولأي درجة اشمئزازك أعمق؟

شارفتْ عقوبتي التي مدتها سنة ونصف على الانتهاء ، وقد آن أوان التخطيط لمستقبلي . كنتُ على مشارف العشرين .

حظيتُ بعملين خلال حياتي : ثلاثة شهور في بيع أواني الطبخ رفيعة الطراز ، التي أسقطتُ وكسرتُ معظمها ، وأسبوع في الكتابة في مكتب فوترة هارفارد ، مُفزِعةً الطلاب بإرسال كمبيالات بمبلغ 900 , 10$ كان يُفترض أن يُقرأ 1,900$.

اقترفتُ هذه الأخطاء لأنِّي كنتُ مرعوبةً من مشرفي . كان المشرف رجلاً أسوداً أنيقًا وجذَّابًا يطوف طوال اليوم بين ممرَّات الطابِعِين على الآلة الكاتبة ، يشاهدنا نعمل . ويدخن أثناء قيامه بذلك . حين أشعلتُ سيجارة ، انقض علي .

قال : «لا يُسمح لكِ بالتدخين» .

«لكن أنت تدخن» .

«الطابعون على الآلة الكاتبة لا يُسمح لهم بالتدخين» .

نظرتُ مِن حولي في الغرفة . كل الطابعين على الآلة الكاتبة نساء ؛ كل المشرفين رجال . كل المشرفين يدخنون ؛ كل الطابعات على الآلة الكاتبة لم يدخنَّ .

حين حان وقتُ الاستراحة ، في العاشرة وخمس عشرة دقيقة ، عجَّت دورة المياه بالطابعات على الآلة الحاسبة اللاتي يدخن .

سألتُ : «ألا يُسمح لنا بالتدخين في الممر؟» ثمة منفضة سجائر خارج دورة المياه .

لكن لم يُسمَح لنا بذلك . علينا التدخين في دورة المياه .

المشكلة الأخرى هي الملابس .

قال المشرف : «لا يُسمَح بالتنانير القصيرة جداً» .

أوقعني هذا في مأزق ، لأني امتلكت فقط تنانير قصيرة جداً ، ولم أحظَ حتى تلك اللحظة بأجرٍ . سألتُ : «لماذا؟» .

كرَّر قائلاً : «لا يُسمَح بالتنانير القصيرة جداً» .

التدخين يوم الاثنين ، والتنانير القصيرة جداً يوم الثلاثاء . في يوم الأربعاء ارتديتُ تنورة قصيرة جداً سوداء مع جوارب نسائية طويلة سوداء وتأمَّلتُ خيراً .

قال : «لا يُسمَح بالتنانير القصيرة جداً» .

جريتُ نحو دورة المياه لأدخِّن سيجارةً سريعاً .

غمغم قائلاً أثناء مروره بمكتبي في جولته الثانية : «لا يُسمح بالتدخين إلا في وقت الاستراحة» .

كان ذلك حين بدأتُ بارتكاب أخطائي ذات العواقب الوخيمة .

استدعاني في يوم الخميس إلى مكتبه ، حيث قعدَ يدخِّن .

قال : «إنَّكِ ترتكبين بعض الأخطاء ، لا يمكننا السماح بهذا» .

قلتُ : «لو سُمِح لي بالتدخين لما ارتكبتُ الكثير منها» .

هزَّ رأسه فحسب .

لم أدخل يومَ الجمعة ، ولم أتصل أيضًا . استلقيتُ على السرير مدخِّنةً ومُفَكِّرةً بالمكتب . كلما أمعنتُ تفكيرًا بالأمر زاد سُخفًا في نظري . لم يكن بوسعي أخذ كل تلك القوانين على محمل الجد . أخذتُ أضحك ، مفكرة بالطابعات على الآلة الكاتبة المحشورات في دورة المياه يدخِّنَّ .

لكن ذلك عملي ، ليس هذا فحسب- كنتُ الوحيدة التي واجهت مشكلة مع القوانين . كلٌّ من عداي قَبِلنها .

أكان ذلك علامة على جنوني؟

فكرتُ بالأمر برمته طوال الأسبوع . هل كنتُ مجنونة أو محقة؟ في عام ١٩٦٧ ، هذا سؤال يصعب الإجابة عنه . حتى بعد خمس وعشرين سنة ، ما زال سؤالا يصعب الإجابة عنه .

التحيُّز الجنسي! كان ذلك تحيُّزًا جنسيًّا محضًا- أوليست هذه الإجابة؟

هذا صحيح ، لقد كان تحيُّزًا جنسيًا . ولكنِّي ما زلتُ أواجه مشكلات في القوانين المتعلقة بالتدخين . الآن لدينا تحيُّز تدخيني . هذا أحد الأسباب التي جعلتني أصبح كاتبة : كي أكون قادرة على التدخين بسلام .

حين سألتني مرشدتي الاجتماعية ما الذي أخطط لفعله بعد خروجي من المستشفى ، أجبتُها : «كاتبة ، سأصبح كاتبة» .

«هذه هوايةٌ جميلة ، ولكن كيف ستكسبين قوت يومك؟» .

أنا ومرشدتي الاجتماعية لم نحبَّ بعضنا . لم أحبَّها لأنها ما فهمت بأن هذه كانت أنا ، وكنتُ سأغدو كاتبة ، لم أكن سأكتب كمبيالات أو أبيع زبديات الغراتن أو أقوم بأي أعمال أخرى حمقاء . لم تحبني لأني كنتُ متكبِّرة وغير متعاونة وفي الأرجح ما زلتُ مجنونة بسبب إصراري على أن أغدو كاتبة .

قالت : «فَنِّيَّةُ أسنان ، هذه هي البطاقة . التدريب مدته سنة واحدة فقط . أنا واثقة من أنكِ ستكونين قادرة على تدبُّر المسؤوليات» .

قلتُ : «أنتِ لا تفهمين» .

قالت : «كلا ، أنتِ لا تفهمين» .

«أنا أكره عيادة طبيب الأسنان» .

«إنَّه عملٌ طيِّبٌ ولائق . عليكِ أن تكوني واقعية» .

قلتُ حين عدتُ إلى الجناح : «يا فاليري ، إنَّها تريدني أن أصبح فَنِّيَّةُ أسنان . إنَّه أمرٌ مستحيل» .

بدا أن فاليري لم تفهم الأمر هي الأخرى ، فقالت : «أوه؟ إنه ليس بالعمل السيئ ، فهو عملٌ طيِّبٌ ولائق» .

تلقَّيتُ لحسن الحظِّ طلب زواج ، فسمحوا لي بالخروج . في عام ١٩٦٨ ، كان بمقدور الجميع أن يفهم معنى طلب الزواج .

أعياد الميلاد في كامبريدج . تبادل طلاب هارفارد الذين من نيويورك وأوريغون الأماكن مع طلاب كامبريدج الذين من كولومبيا وريد : لعبة الكراسي الموسيقية الخاصة بالعطلة .

اصطحبني أخ صديقي الذي سيموت ميتة عنيفة -ولكننا لم نعرف ذلك بعد فموته كان بعد سنتين تقريبا في المستقبل- إلى السينما ، حيث قابلتُ خطيبي . زواجنا أيضًا بعد سنتين في المستقبل .

تقابلنا أمام مسرح براتل ، حيث عُرَضت مسرحية «أطفال الفردوس» . وقد بدت كامبريدج في جو كانون الأول المشمس وغير الممطر كشيء من الفردوس ذلك المساء ، حافلة بالأنوار ومتسوقي أعياد الميلاد والثلج الرقيق الجاف . تساقط الثلج على شعر زوجي المستقبلي الأشقر الرقيق . لقد ارتادا الثانوية ذاتها ، أعني أخ صديقي المنكوب وهو . والآن عاد من ريد إلى المنزل لعطلة أعياد الميلاد .

قعدتُ بينهما في الشرفة ، حيث أمكننا أن ندخن . قبل مدة طويلة من فقدان باتيست لغارينس بين الحشود ، أمسك زوجي المستقبلي بيدي . كان ما يزال ممسكا بها حين خرجنا من المسرح ، وأخ صديقي تركَنا بلباقة هناك ، في ليل كامبريدج الذي يتطاير ثلجه .

لم يكن ليدعني أذهب . لقد أثَّر فينا الفيلم ، وكامبريدج جميلة تلك الليلة ، مليئة بالاحتمالات والحياة . قضينا الليلة معا ، في شقة استعارها من صديقه .

عاد إلى ريد ، لأنِّي عدتُ لبيع عَصَّارات الثوم وصواني خَبز المادلين . ثم أخذ المستقبل يدنو مني ونسيتُ أمره .

لم ينسني هو . حين تخرج في ذلك الربيع وعاد إلى كامبريدج ، عثر علي في المستشفى . قال بأنه ذاهب إلى باريس ليقضي الصيف هناك ، ولكنه سيراسلني . قال بأنه لن ينسى بأن يراسلني .

لم أعره اهتماماً فقد كان يعيش في عالم يحظى فيه بمستقبل ، خلافًا لي .

حين عاد من باريس ، كانت الأوضاع سيئة : رحيل توري ، سؤالي عن عظامي ، قلقي من كم الوقت الذي خسرتُه في كرسي طبيب الأسنان . لم أرغب برؤيته . أخبرتُ طاقم التمريض بأن مزاجي لا يسمح لي بذلك .

«هذا محال! فأنا مستاءة جدًّا» .

تهاتفنا عوضًا عن ذلك . كان سينتقل إلى آن آربر . ولم يكن عندي اعتراض على ذلك .

لم ترق له آن آربر ، فعاد بعد ثمانية أشهر راغبًا في زيارتي مجدَّدًا .

لم تكن الأوضاع بذات السوء فقد حصلتُ على العديد من الامتيازات . ذهبنا إلى السينما ، طهونا العشاء معا في شقته ، شاهدنا عدد الإصابات

لليوم في أخبار الساعة السابعة . في الحادية عشر وثـــــــــــلاثين دقيقة كنتُ أطلب سيارة أجرة وأعود إلى المستشفى .

لاحقًا في ذلك الصيف ، وُجِدت جثة صديقي في قعر بيت مصعد . كان صيفًا حارًا ، وقد تعفنت جثته جزئيا . هذا حيث انتهى مستقبله ، في طابق سفليّ في يوم حار .

ذات ليلةٍ من ليالي أيلول ، عدتُ إلى المستشفى مبكرًا ، قبل الحادية عشرة . كانت ليسا جالسة مع جورجينا في غرفتنا .

قلتُ : «تلقيتُ طلب زواج الليلة» .

سألتني جورجينا : «ما الذي قلتهِ؟» .

قلتُ : «تلقيتُ طلب زواج» حين قلتُ العبارة للمرة الثانية ، تفاجأتُ منها أكثر .

قالت جورجينا : «له ، ما الذي قلتهِ له؟» .

قلتُ : «قلتُ نعم» .

سألتني ليسا : «أترغبين بزواجه؟» .

قلتُ : «مؤكَّد» ولكنني لم أكن متأكدة تمامًا .

قالت جورجينا : «ثم ماذا؟» .

«ما قصدكِ؟» .

«ما الذي سيحدث حينها بعد أن تتزوجي؟» .

قلتُ : «لا أعلم ، لم أتصوَّر الأمر» .

قالت ليسا : «يجدر بكِ أن تتصوَّريه» .

حاولتُ . أغمضتُ عينيَّ وتصوَّرتُنا في المطبخ ، نقطِّع ونحرِّك . تصوَّرتُ جنازة صديقي . تصوَّرتُ الذهاب إلى السينما .

قلتُ : «لا شيء ، تبدو حياةً هادئة . الأمر يشبه- لا أعرف . الأمر يشبه السقوط من جرف» ضحكتُ . «أظن أن حياتي ستتوقف فحسب حين أتزوج» .

لم تتوقف . لم تكن هادئة أيضاً . وفي النهاية ، فقـــــــــدتُه . فعلتُها عمداً ، بذات الطريقة التي فُقدتْ بها غارنيس باتيست بين الحشود . شعرتُ بحاجةٍ إلى لاختلاء بنفسي . أردتُ أن أمضي وحدي نحو مستقبلي .

أيًّا كان ما نسمِّيه -العقل ، أو الشخصية ، أو الروح- فإننا نحبُّ أن نعتقد بأننا نمتلك شيئًا أعظم من مجموع خلايانا العصبية و«يُحْيِينا» .

الكثير من العقل ، مع ذلك ، يتضح بأنه دماغ . الذاكرة نمط محدد من التغيرات الخلوية في مناطق محددة في رؤوسنا . المزاج مزيج من النواقل العصبية . فزيادة الأسيتيل كولين عن اللزوم ، مع عدم وجود كفاية من السيروتونين ، ستصيبك بالاكتئاب .

إذًا ، ماذا بقي من العقل؟

بين عدم وجود كفاية من السيروتونين إلى الاعتقاد بأن العالَم «تَفِهٌ ، ورتيبٌ ، وعديم الجدوى» مسافة بعيدة ، بل هي أبعد إلى كتابة مسرحية عن رجل تقوده هذه الفكرة . هذا يترك مساحة كبيرة للعقل . شيءٌ يفسر جلبة النشاط العصبي .

لكن هل هذا المُفَسِّر بالضرورة ميتافيزيقي وغير مجسَّد؟ أليس في الأرجح عددًا -عددًا ضخمًا- من الوظائف الدماغية التي تعمل بالتوازي مع بعضها؟ إن عُرِّفَت وخُرِّطَت كل شبكة العمليَّات الضئيلة المتزامنة التي تشكل فكرة ، فإن «العقل» قد يصبح ظاهرًا .

المُفَسِّر مقتنعٌ بأنَّه غير ظاهر ولا يمكن تخريطه . يزعم قائلاً : «أنا عقلك ، لا يمكنك أن تقسِّمني إلى تَغَصُّنات ومشابك عصبيَّة» .

إنَّه مليءٌ بالمزاعم والأسباب . إنَّه يقول : «أنت مكتئب قليلاً بسبب الضغط الذي تشعر به في العمل» (لا يقول أبدًا : «أنت مكتئب قليلاً لأن معدَّل السيروتونين فيك قد انخفض») .

أحيانًا لا تكون تفسيراته جديرة بالثقة ، مثل صراخه قائلاً حين تجرح إصبعك : «سوف تموت!» وأحيانًا تكون مزاعمه مستبعدة ، مثل قوله : «ستكون خمس وعشرون قطعة من كوكيز رقائق الشوكولا عشاءً مثاليًّا» .

غالبًا ، حينها ، فإنه لا يعلم ما الذي يتحدث عنه . وحين تقرر بأنه مخطئ ، ما أو مَن الذي يتخذ ذلك القرار؟ مُفَسِّر ثانٍ أفضل منه؟

لماذا نكتفي باثنين؟ هذه مشكلة هذا النموذج . إنه لا نهائي . فكل مُفَسِّر يحتاج إلى مدير يكون تابعًا له .

لكن ثمة شيء بشأن هذا النموذج يصف جوهر خبرتنا بالوعي . توجد هناك فكرة ، ثُمَّ يوجد التفكير بالأفكار ، وهما ليسا متطابقين . عليهما أن يعكسا جوانب متباينة جداً من وظائف الدماغ .

مربط الفرس هو أنَّ الدماغ يكلِّم نفسه ، وبتكلُّمه مع نفسه فإنَّه يغيِّر مفاهيمه . لكي نصنع نسخة جديدة من النموذج الذي ليس خاطئًا بأكمله ، تخيَّل المُفَسِّر الأول على أنه مراسل أجنبي ، ينقل الأخبار من العالم . العالم في هذه الحالة يعني كل شيء خارج أو داخل أجسادنا ،

وهذا يشمل معدلات السيروتونين في الدماغ . المُفَسِّر الثاني هو محلِّل الأخبار الذي يكتب مقالات الرأي . إنَّهما يقرآن أعمال بعضهما . أحدهما يحتاج البيانات ، والآخر يحتاج نظرة عامة ؛ إنَّهما يُؤَثِّران في بعضهما . إنهما يبدآن الحوارات .

المُفَسِّر الأول : ألمٌ في القدم اليسرى ، في مؤخر الكعب .

المُفَسِّر الثاني : أنا موقنٌ بأنَّ السبب هو كون الحذاء ضيقًا جدًا .

المُفَسِّر الأول : تفحصتُ ذلك . خلعتُ الحذاء . ما تزال القدم تتألم .

المُفَسِّر الثاني : هل ألقيتَ نظرة عليها؟

المُفَسِّر الأول : أنا أنظر الآن . إنها مُحمرَّة .

المُفَسِّر الثاني : لا توجد دماء؟

المُفَسِّر الأول : لا .

المُفَسِّر الثاني : انسَ الأمر .

المُفَسِّر الأول : حسنًا .

ولكن بعد دقيقة يظهر تقريرٌ آخر .

المُفَسِّر الأول : ألمٌ في القدم اليسرى ، في مؤخر الكعب .

المُفَسِّر الثاني : أعلم هذا سلفا .

المُفَسِّر الأول : ما زال يؤلم . إنَّه الآن منتفخ .

المُفَسِّر الثاني : إنَّها مجرد بثرة . انسَ أمرها .

المُفَسِّر الأول : حسنًا .

بعد دقيقتين .

المُفَسِّر الثاني : لا تُزِلها!

المُفَسِّر الأول : سوف تتحسن إن فقعتُها .

المُفَسِّر الثاني : هذا ما تظنه أنت . دعها وشأنها .

المُفَسِّر الأول : حسنًا . لكنها ما تزال تؤلم .

يبدو بأنَّ المرض العقلي يُشَكِّل معضلة في التواصل بين المُفَسِّرَين الأول والثاني .

مثال نموذجي عن اللبس الحاصل :

المُفَسِّر الأول : يوجد نمر في الزاوية .

المُفَسِّر الثاني : لا ، هذا ليس نمرًا- هذا مكتب .

المُفَسِّر الأول : إنَّه نمر ، إنَّه نمر!

المُفَسِّر الثاني : لا تكن سخيفًا . لنذهب ونلقي نظرة عليه .

ثم تجْمَعُ التغصنات والخلايا العصبية ومعدلات السيروتونين والمُفَسِّران نفسيهما ويهرولون نحو الزاوية .

إن لم تكن مجنونًا ، فإنَّ ادعاء المُفَسِّر الثاني بأن هذا مكتب سيكون مقبولاً عند المُفَسِّر الأول . إن كنت مجنونًا ، فإنَّ وجهة نظر المُفَسِّر الأول ، نظرية النمر ، سوف تنتصر .

المشكلة هنا أنَّ المُفَسِّر الأول في حقيقة الأمر يُبصِر نمرًا . الرسائل المرسلة بين الخلايا العصبية هي بطريقة ما غير صحيحة . المواد الكيميائية التي حُفِّزَت هي المواد الكيميائية الخاطئة ، أو النبضات العصبية تذهب إلى الوصلات الخاطئة . على ما يبدو ، هذا يحدث غالبًا ، لكن المُفَسِّر الثاني يتدخل لتصحيح الأمور .

فكِّر بأنَّك في قطار ، بجانب قطار آخر ، في محطة . حين يبدأ القطار الآخر بالتحرك ، فإنَّك مقتنعٌ بأن قطارك يتحرك . خشخشة القطار الآخر تبدو مثل خشخشة قطارك ، وتبصر قطارك يترك ذلك القطار الآخر خلفه . قد يستغرق الأمر بعض الوقت –ربما حتى نصف دقيقة– قبل أن يفرز المُفَسِّر الثاني ادعاء المُفَسِّر الأول حول التحرك ويصححه . هذا لأنَّه يصعب إبطال صحة الانطباعات الحسية . نحن مُصَمَّمون لتصديقها .

حالة القطار ليست خداعًا بصريًا ، فالخداع البصريَّ يحتوي واقعَين . ليس الأمرُ وكأنَّ المزهريَّة خطأ والوجهان صواب[11] ؛ كلاهما صواب ، والدماغ يتنقل بين شكلين موجودين يُعَرِّفهما على أنهما شيئان مختلفان . مع أنَّك قد تصيب نفسك بالدُّوار متنقلاً من المزهرية إلى الوجهين وعودة إلى

[11] تشير هنا إلى صورة بالأبيض والأسود؛ اللون الأسود على شكل مزهرية، والأبيض على شكل وجهين. (المترجمة)

المزهرية ، فلا يمكنك أن تقوِّض حِسَّك بالواقع بطريقة غريزية كما يمكنك مع القطار .

أحيانًا ، حين تدرك بأنَّ قطارك لا يتحرَّك حقًّا ، قد تقضي نصف دقيقة أخرى مُعَلَّقًا بين حيِّزين من الإدراك : الإدراك الذي يعرف بأنَّك لا تتحرك ، والإدراك الذي يشعر بأنَّك تتحرَّك . يمكنك أن تتنقل بسرعة ذهابًا وإيابًا بين هذين الفهمَين وتشعر بنوع من الدوار الذهني . وإن كنت تفعل هذا ، فإنك تسير على أرض الجنون- مكانٌ تمتلك فيه الانطباعات الخاطئة كل السمات المميزة للواقع .

قال فرويد بأنَّ المصابين بالذُّهان هُم أشخاص غير قابلين للتحليل النفسي ، إذ إنَّهم غير قادرين على التمييز ما بين الخيال والواقع (النمر مقابل المكتب) ، والتحليل النفسيُّ قائمٌ تحديداً على هذا التمييز . يجب على المريض أن يرتِّب مزاعم المُفَسِّر الأول التي غالبًا ما تكون خيالية وأن يتفحصها بدقة مع المُفسِّر الثاني . الأمل في أن يمتلك المُفَسِّر الثاني ، أو أن يتعلَّم كيف يمتلك ، الحصافة والبصيرة لدحض بعض المزاعم السخيفة التي زعمها المُفَسِّر الأول على مدى السنين .

بوسعك أن ترى لماذا يُعدُّ شَكُّ المرءِ بجنونه علامةً جيِّدة : إنها استجابة مستميتة من قبل المُفَسِّر الثاني . يقول المُفَسِّر الثاني : ما الذي يحدث؟ إنَّه يخبرني بأنَّه نمرٌ ولكنِّي لستُ مقتنعًا ، ربما ثمة خطبٌ ما فيَّ . ثمة شكٌّ كافٍ لمنح «الواقع» موطئ قدم .

انعدامُ الشَّك يعني انعدام التحليل النفسي . يدخل مدردشًا عن النمور سوف يُعْرَضُ عليه الثورازين ، لا القعود على الأريكة .

في تلك اللحظة ، حين يقترح الطبيب الثورازين ، ما الذي يحدث لخريطة الطبيب الذهنية عن المرض العقلي؟ في وقت مبكر من اليوم ، كان الطبيب يمتلك خريطة مقسمة إلى الهو والأنا والأنا العليا ، مع كل أنواع الخطوط المتعرجة ، أو ربما المتقطعة ، التي تسير بين تلك المناطق الثلاث . كان الطبيب أو الطبيبة يعالج أو تعالج شيئًا يُسَمِّيه هو أو تُسَمِّيه هي النَّفْس أو العقل . فجأة أصبح الطبيب يتجهز لمعالجة دماغ . هذا الدماغ لا يحتوي على نظام شبيه بالنَّفْس ، أو لو كان يحتوي على نظام مشابه ، فإنَّ مشكلته ليست فيه . لهذا الدماغ مشاكل كيميائية وكهربائية .

يقول الطبيب : «الخلل يكمن في تقييم الواقع . تقييم هذا الدماغ للواقع مختل ولا يمكنني تحليله . تلك الأدمغة -العقول- الأخرى لم تكن كذلك» .

ثمة خطبٌ ما هنا ، لا يمكنك أن تسمي قطعة فاكهة تفاحة حين ترغب بأكلها وهندباء حين لا ترغب بأكلها . إنَّها النوع نفسه من الفاكهة مهما كانت نواياك نحوها . وما مدى وجاهة القول بوجود فرق حاسم بين الأدمغة التي تعرف الواقع والأدمغة التي لا تعرف الواقع؟ هل الدماغ الذي يتعرف على الشيء غير الواقعي مختلفٌ حقا عن الدماغ الذي يتعرف على الشيء الواقعي كاختلاف القدم ، مثلا ، عن الدماغ؟ يبدو

هذا غير مرجح . التعرُّف على النسخة المتفق عليها من الواقع ما هو إلا عملٌ من مليارات الأعمال التي يؤديها الدماغ .

إن تمكن اختصاصيو الكيمياء الحيوية من إظهار الوظائف الفيزيائية للعُصاب (الرهاب ، أو صعوبة الاستمتاع بالحياة) إن كان بوسعهم أن يحدِّدوا المواد الكيميائية والنبضات العصبية ومحادثات الدماغ البيني وتبادل المعلومات التي تشكِّل هذه المشاعر ، فهل ســـــــــــيوضب المحللون النفسيون هُوَاتهم وأنَّاتهم ويتقاعدون من المجال؟

لقد تقاعدوا جزئيا من المجال . الاكتئاب ، الاكتئاب الهوسي ، الفصام : كل تلك الأمراض التي كانوا دائما يواجهون صعوبة في علاجها أصبحوا الآن يعالجونها كيميائيا . تناوَل حبتين من الليثيوم ولا تتصل بي في الصباح لأنه ما من شيء يُقال ، الأمر فطري .

بعض الجهود المتضافرة -كتلك التي يفعلها الدماغ- ستكون مفيدة هنا .

لما يقارب القرن كتب المحللون النفسيون مقالات رأي عن وظائف دولة لم يسافروا إليها قط ، مكانٌ كان ، مثل الصين ، يُحظَر دخوله . فجأة ، فتحت الدولة حدودها وأصبحت تعج بالمراسلين الأجانب ؛ يرسل اختصاصيو البيولوجيا العصبية عشر مقالات في الأسبوع مليئة بالمعلومات الجديدة . لكن هاتين المجموعتين من الكتَّاب لا يبدو أنهما يقرآن أعمال بعضهما .

هذا لأنَّ المحللين النفسيين يكتبون عن دولة يُسَمُّونها العقل ، في حين أن علماء الأعصاب ينقلون الأخبار من دولة يُسَمُّونها الدماغ .

أحد الملامح الجوهرية لهذا الاضطراب هو النمط السائد لعدم استقرار الصورة الذاتية ، والعلاقات الشخصية ، والمزاج . يبدأ من بداية سن البلوغ ويكون حاضراً في ظروف متنوعة .

اضطراب هوية ملحوظ ومستمر يكاد يكون حاضراً دائمًا . غالبًا ما يسود هذا ، ويتجلى في انعدام اليقين حول بعض مشاكل الحياة ، مثل الصورة الذاتية ، والميول الجنسية ، والأهداف طويلة المدى أو الخيار المهني ، أو نوع الأصدقاء والعشاق الذين ستحظى بهم ، والقيم التي ينبغي التحلي بها . غالبًا ما يختبر الشخصُ تزعزع الصورة الذاتية هذا على هيئة مشاعر مزمنة من الخواء والملل .

عادة ما تكون العلاقات الشخصية غير مستقرة وانفعالية ، ويمكن أن تُصَوَّر بكونها تناوبًا بين النقيضين : المبالغة في إضفاء المثالية ، والانتقاص من قدر الأشخاص . يعاني هؤلاء الناس صعوبة في تحمُّل كونهم وحيدين ، وسيبذلون جهوداً محمومة لتجنب الهجر الواقعي أو المتخيَّل .

تقلب المزاج الوجداني أمرٌ شائع . قد يتضح هذا في التقلبات المزاجية الملحوظة من المزاج الأساسي إلى الاكتئاب ، أو التَّهيُّجيَّة ، أو القلق ، والتي عادة ما تدوم بضع ساعات ، أو في حالات نادرة فقط ، أكثر من بضعة أيام . إضافة إلى ذلك ، غالبًا ما يمتلك هؤلاء الناس غضبًا شديداً

على نحو غير ملائم مع إظهار متكرر للانفعال أو العراكات الجسدية المتكررة . يميلون لأن يكونوا مندفعين ، خصوصاً في الأنشطة التي قد تضر النَّفْس ، مثل تبذير المال في التسوق ، والإفراط في تناول المواد المؤثرة نفسيًا ، والقيادة المتهورة ، والجنس العَرَضِي ، وسرقة المعروضات ، ونهم الطعام .

التهديدات ، والإشارات ، والسلوك الانتحاري وغيرها من سلوك التشويه الذاتي (مثل خدش الرسغ) شائعة في المراحل الأقوى من الاضطراب . قد يستخدم هذا السلوك للتلاعب بالآخرين ، وقد يكون نتيجة غضب شديد ، أو مقاومةً لمشاعر «الخدر» واضطراب تبدد الشخصية اللذين يحدثان أثناء مدد الإجهاد الشديد . . . .

السمات المصاحبة : كثيراً ما يكون هذا الاضطراب مصحوباً بالعديد من سمات اضطرابات الشخصية الأخرى ، مثل اضطراب الشخصية الفصامي ، واضطراب الشخصية الهستيري ، واضطراب الشخصية النرجسية ، واضطراب الشخصية المعادية للمجتمع . في حالات كثيرة ، وجود أكثر من تشخيص له ما يبرره . في أحيان كثيرة ، يُلاحَظ وجود مخالفة مجتمعية ونظرة تشاؤمية عامة . التناوب بين الاتكال وتأكيد الذات أمر شائع . خلال مدد الإجهاد الشديد ، قد تحدث أعراض ذهانية مؤقتة ، لكن حدتها ومدتها عموماً غير كافيتين ليبررا تشخيصاً إضافيًا .

الخلل : عادة ما يكون ثمة عبثٌ كبير بالأداء الاجتماعي أو المهني .

المضاعفات : تشمل المضاعفات المحتملة الاكتئاب الجزئي [العُصاب المُكْتئِب] ، والاكتئاب الكبير ، والإفراط في تناول المواد المؤثرة نفسيًا ، واضطرابات ذهانية مثل الذهان التفاعلي الوجيز . قد ينتج موت مبكر من الانتحار .

نسبته بين الجنسين : النساء هن أكثر من يشخص بهذا الاضطراب عادة .

الشيوع : اضطراب الشخصية الحدّية شائع على ما يبدو .

قابلية الإصابة والأنماط العائلية : لا توجد معلومات .

التشخيصات التفريقية : إنَّ لاضطراب الهوية صورة سريريَّة مشابهة ، لكن اضطراب الشخصية الحدّية يسبق تشخيص اضطراب الهوية إن استُوفيت معايير اضطراب الشخصية الحدّية ، وكان الاضطراب منتشراً كفاية ، ومستبعدٌ أن يقتصر حدوثه على مرحلة النمو . . .

إذاً فقد كانت تلك التهم الموجهة ضدي . لم أقرأها إلا بعد خمس وعشرين سنة . «اضطراب الصفات» هو ما أخبروني به حينها .

توجب علي إيجاد محام ليساعدني في الحصول على سجلاتي من المستشفى ، وجَّب علي قراءة السطر ٣٢ **A** في أنموذج **A I** لسجل الحالات ، والمدخل **G** في ورقة الخروج من المستشفى في ملخص الزيارات ، والمدخل **B** في الجزء الرابع من تقرير الحالة ، ثم وجب علي إيجاد نسخة من كتاب «الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية» والبحث عن تعريف اضطراب الشخصية الحديّة لأعرف ما الذي يظنونه بي حقا .

إنه وصفٌ دقيقٌ لي إلى حدٍّ ما حين كنتُ في الثامنة عشر ، مع إهمال ذكر قليل من صفاتي الغريبة مثل القيادة المتهورة والإفراط في الأكل . إنه وصف دقيق ولكنه ليس شاملاً . بالطبع ، هو لا يهدف لأن يكون شاملا ، بل إنه لا يعد حتى دراسةً لحالة . إنه مجموعة من الإرشادات ، إنه تعميم .

أرغب بدحض هذا الوصف ، ولكن هذا سيعرضني لمزيد من الاتهامات بأني أعاني من «الدفاعية» و«المقاومة» .

كل ما يسعني فعله هو ذكر التفاصيل : تشخيصٌ مع الشرح .

«انعدام اليقين حول بعض مشاكل الحياة ، مثل الصورة الذاتية ، والميول الجنسية ، والأهداف طويلة المدى أو الخيار المهني ، أو نوع الأصدقاء والعشاق الذين ستحظى بهم» تروقني هذه الجملة الأخيرة ، فغرابتها (تبدو «الذين ستحظى بهم» فائضة عن الحاجة) تمنحها فحوًى وثقلاً . ما زال عندي انعدام اليقين ذاك . أهذا نوع الصديق أو العشيق الذي أريد أن أحظى به؟ أسأل نفسي هذا السؤال في كل مرة أقابل فيها شخصا جديدا . جذّابٌ لكنه سطحي التفكير ، طيب القلب ولكنه تقليدي قليلاً ، أوسم من اللازم ، فاتنٌ ولكنه في الأرجح لا يُعتمد عليه ، وهلم جرًّا . أظن بأني حظيتُ بكفايتي ممَّن لا يعتمد عليهم . هل حظيتُ بأكثر من كفايتي؟ كم عدد الأشخاص الذين يشكِّلون أكثر من كفايتي؟

أقل منه عند شخص آخر- عند شخص لم ينعته أحدٌ قط بالمصاب باضطراب الشخصية الحديّة؟

هذا لب مشكلتي هنا .

لو أنني شُخِّصتُ بمرض ثنائي القطب ، مثلاً ، لكانت ردود الفعل اتجاهي واتجاه هذه القصة مختلفة قليلاً . كنتَ لتقول لنفسك : تلك مشكلة كيميائية ، الاكتئاب الهوسي ، الليثيوم ، كل ذلك . سأعدُّ بريئة بطريقة ما . وماذا عن الفصام- هذا سيجعل فرائصك ترتعد . فبعد كل شيء ،

الفصام جنون حقيقي. الناس لا «يتعافون» من الفصام. سيتوجب عليك أن تتساءل كم من الأمور التي أخبرك بها حقيقة وكم منها متخيلة.

أنا أجعل الأمر يبدو يسيرا، أعلم ذلك. ولكن هذه الكلمات تَصِم بالعار كل شيء. حقيقة أني كنتُ محتجزة تَصِم بالعار كل شيء.

ما معنى الشخصية الحدّية على أي حال؟

تبدو كمحطة متوسطة بين العصاب والذهان: ذهنٌ مكسورٌ ولكنه ليس مفكَّكًا. لكن لأقتبس مقولة طبيبي النفسي الما بعد ملفنيّ: «إنها ما يُنعت به الأشخاصُ الذين ينزعج الناس من أساليب عيشهم».

بوسعه قول ذلك لأنه طبيب. إن قلتُ أنا ذلك، فلن يصدقني أحد.

قال محلِّل نفسي أعرفه منذ سنين: «كان فرويد وجماعته يرون أنَّ معظم الناس مصابين بالهستيريا، ثم في الخمسينيَّات، أصبحوا مصابين بالعصاب، ومؤخراً، أصبح الجميع مصابين باضطراب الشخصية الحدّية».

حين ذهبتُ إلى مكتبة ذاكورِنر بحثًا عن تشخيصي في الدليل، خطر ببالي أنني قد لا أجده فيه لأنه لم يعد موجوداً، فهم يزيلون بعض الأمور- مثل المثلية الجنسية. إلى وقت قريب، عدد غير قليل من أصدقائي كانوا ليجدوا أنفسهم موثَّقين في ذَلك الكتاب برفقتي. حسناً، لقد خرجوا من الكتاب وأنا لم أخرج. ربما بعد خمس وعشرين سنة أخرى لن أكون فيه أيضًا.

«عدم استقرار الصورة الذاتية ، والعلاقات الشخصية ، والمزاج . . . انعدام اليقين حول . . . الأهداف طويلة المدى أو الخيار المهني . . .» . أوليسَ هذا وصفًا ملائمًا للمراهقة؟ مزاجيُّون ، ومتقلِّبون ، ومسايرون للموضة ، وعديمو الثقة بالنفس : باختصار ، أشخاصٌ يستحيل التعامل معهم .

«سلوك التشويه الذاتي (مثل خدش الرسغ) . . .» لقد تجاوزتُ قليلاً بعض ما كُتِب . هذه هي الفقرة التي فاجأتني حين كنتُ على أرضية المكتبة أقرأ تشخيصي . خدش الرسغ! ظننتُ بأني أنا التي اخترعته . خبط الرسغ ، لأكون دقيقة .

هنا حيث تتوقف قدرة الناس على فهمي . هذه هي الأمور التي تُحبس بسبب فعلها . لكن لم يعرف أحد أني كنتُ أفعلها . لم أخبر أحدا قط إلا الآن .

كنتُ أمتلك كرسي الفراشة . في الستينيات ، امتلك كل من في كامبريدج كرسيَّ الفراشة . الطرف المعدني لمقعده المقلوب كان موضوعًا بمثالية لخبط الرسغ . كنتُ قد جربتُ كسر المرمدات والسير فوق الشظايا ، ولكني لم أمتلك الجرأة للمشيء بعزم فوقها . خبط الرسغ -ببطء ، بثبات ، بلا تفكير- كان حلا أفضل . إصابة تراكمية ، لذا كان يمكن تحمّل كل خبطة .

حلٌّ لماذا؟ أقتبس من الدليل : «قد يستخدم هذا السلوك لِـ . . . مقاومة مشاعر «الخدر» واضطراب تبدد الشخصية اللذين يحدثان أثناء مدد الإجهاد الشديد» .

قضيتُ ساعات على كرسيِّي ، كرسي الفراشة ، أخبط رسغي . كنتُ أخبط رسغي فيٍ المساءات وكأنه فرضٌ منزلي . أديت بعض الفروض المنزلية ، ثم أقضي نصف ساعة أخبط رسغي ، ثم أنجز فرضي المنزلي ، ثم أعود لأقعد على الكرسي لمزيدٍ من الخبط قبل أن أفرش أسناني وأخلد إلى النوم . خبطتُ داخل الرسغ ، حيث تتركز الأوردة ، فتورمت واستحال لونها إلى لأزرق قليلاً ، لكن إن أخذنا بعين الاعتبار مدى كثرة وقوة خبطي لها ، فقد كان الضرر الظاهر طفيفًا ، وتلك دعوة من الرسغ لي لأخبطه ثانية .

مرَّ عليَّ زمن أقدم كنتُ أخدش فيها وجهي . لولا أن أظافري كانت قصيرة جدًا ، لما أفلتُّ بفعلتي . على تلك الحال ، مؤكد أني بدوتُ منتفخة وغريبة في اليوم التالي . اعتدتُ أن أخدش خديَّ ثم أفكرهما بالصابون ، ولعلَّ الصابون هو ما منعني أن أبدو أسوأ . ولكني بدوتُ سيئة كفاية ليسألني الناس : «هل مِن خطبٍ بوجهك؟» لذا تحوَّلتُ عنه إلى خبط الرسغ .

كنتُ كزاهدٍ مرتد قميص شّعر ، إذ إنَّ جزءًا من هدفي في فعل ذلك كان ألا يعرف أحدٌ بشأنٍ معاناتي . إذ إنه لو عرف الناس عني أو أعجبوا بي -أو أبغضوني- فسأفقد شيئًا مهمًا .

كنتُ أحاول أن أشرح وضعي لنفسي . وضعي أني كنتُ أتألم دون أن يعرف أحد ذلك ، حتى أنا كنتُ أواجه صعوبة في معرفة ذلك . لذا قلتُ لنفسي مراراً وتكراراً : أنتِ تتألمين . تلك الطريقة الوحيدة التي استطعتُ بها إقناع نفسي («مقاومة مشاعر «الخدر»») . كنتُ أبدي ، خارجيًا وعلى نحو لا يقبل الجدل ، مرضًا داخليًا .

«في أحيان كثيرة ، يُلاحَظ وجود مخالفة مجتمعية ونظرة تشاؤمية عامة» ماذا تعتقد بأنهم يقصدون بـ«مخالفة مجتمعية»؟ وضع مرفقيَّ على الطاولة؟ رفضي أن أعمل فَنِّيَّةُ أسنان؟ تخييب أمل والدي في أن أدرس بجامعة ممتازة؟

إنهم لا يعرِّفون «المخالفة المجتمعية» ، ولا يمكنني أن أعرِّفها ، لذا أظن بأنه ينبغي أن تُستبعد من القائمة . سأقرُّ بالنظرة التشاؤمية العامة فقد كانت لدى فرويد أيضًا .

بوسعي أن أقول بصراحة أن بؤسي قد تحوَّل إلى حزن شائع ، لذا طبقا لتعريف فرويد فقد حقَّقتُ الصحة العقلية . وفي السطر ٤١ من ورقتي ، ورقة الخروج من المستشفى ، في النتيجة المتعلقة بالمرض العقلي ، كُتِب «متعافية» .

متعافية . هل عبرت شخصيتي ذلك الحد ، أيًا ما كان وأينما كان ، لتستأنف الحياة ضمن قيود ما يعدُّ طبيعيًا؟ هل كففتُ عن الجدال مع شخصيتي وتعلمتُ أن أكون بين العقل والجنون؟ في الأرجح أني عانيت

حقًّا من اضطراب هوية . «إنَّ لاضطراب الهوية صورة سريريَّة مشابهة ، لكن اضطراب الشخصية الحدّيّة . . . يسبق تشخيصَ . . . إن كان الاضطراب منتشراً كفاية و . . . ومستبعدٌ أن يقتصر حدوثه على مرحلة النمو» . ربما كنتُ ضحية إجراء استباقي خاطئ؟

لم أنتهِ بعدُ من هذا التشخيص .

«غالبًا ما يختبر الشخصُ تزعزع الصورة الذاتية هذا على هيئة مشاعر مزمنة من الخواء والملل» مشاعري المـــــــــزمنة من الخواء والملل جاءت من حقيقة أني كنتُ أعيش حياةً مستندةً على مواطن الضعف عندي ، وهي كثيرة . تضمنت قائمة جزئية الأمور التالية : لم أستطع ولم أرغب بالتزلج ، ولا لعب التنس ، ولا حضور حصة التربية البدنية ، ولا الانتباه لأي مادة في المدرسة باستثناء الإنجليزية والأحياء ، كتابة بحوث عن أي من المواضيع المعطاة (كتبتُ قصائد بدلا من البحوث لمادة الإنجليزي ، فحصلتُ على علامة الرسوب) ، ولا التخطيط لارتياد جامعةٍ أو التقدُّم بطلب إليها ، ولا منح أي تفسير منطقي لرفضي هذه الأمور .

صورتي الذاتية لم تكن متزعزعة . حسبتُ نفسي ، على وجه الدقة ، غير مؤهلة للأنظمة التعليمية والاجتماعية .

لكنَّ والديَّ ومعلميَّ لم يشاركوني صورتي الذاتية . كانت صورتهم عني متزعزعة ، لأنها لم تكن تتوافق مع الواقع ومبنيةً على حاجاتهم وأمانيهم .

لم يقدِّروا قدراتي حق قدرها، والتي أعترف بأنها كانت قليلة، لكن حقيقية. قرأتُ كل شيء، وكتبتُ باستمرار، وحظيتُ بعشّاق كثر.

كانوا يسألونني: «لماذا لم تؤدِ واجب القراءة؟» «لماذا لا تكتبين بحوثكِ بدلا من أي ما كان هذا الذي تكتبينه- ما هذا، قصة قصيرة؟» «لماذا لا تبذلين ذات النشاط في الواجبات المدرسية كما تفعلين مع عشاقك؟».

بحلول سنة تخرجي لم أكلِّف نفسي حتى عناء الأعذار، ناهيك عن التبريرات.

سأل أستاذي، أستاذ التاريخ: «أين ورقة الفصل الدراسي خاصتك؟».

«لم أكتبها إذ ليس عندي ما أقوله عن هذا الموضوع».

«كان بوسعكِ أن تختاري موضوعًا آخر».

«ليس عندي ما أقوله عن أي موضوع تاريخي».

أخبرني أحد أساتذتي بأني عدميَّة. قالها قاصداً بها الإهانة، ولكني عددتها إطراءً.

العشاق والأدب: كيف يمكنك أن تعيش على هذين الأمرين؟ تبينَّ أني فعلتُ ذلك، أعيش على الأدب أكثر من العشاق مؤخرًا، ولكني أظن أنه لا يسعك أن تحظى بكل شيء («يُلاحَظ وجود نظرة تشاؤمية عامة»).

حينها لم أعلم أن بوسعي -أو بوسع أي أحد- العيش على العشاق والأدب. على حدِّ فهمي حينها، فإن الحياةُ تطلَّبت مهاراتٍ لم أتمتع بها.

كانت النتيجة خواءً ومللاً مزمنَين . وثمة المزيد من النتائج الضارة أيضًا : كره الذات ، يتناوب مع «غضب شديد على نحو غير ملائم مع إظهار متكرر للانفعال» .

ما الذي سيُعَدُّ قَدْرًا ملائمًا من الشِّدة لغضبي على شعوري بأني مستبعدة من الحياة؟ كان زملائي ينسجون خيالاتهم للمستقبل : محامي ، عالم نبات عرقي ، راهب بوذي (كانت مدرسة ثانوية تقدُّمية جدًا) . حتى الطلاب المغفلون والمملون الذين وُجِدوا ليوفِّروا «توازنًا» تطلَّعوا لزيجاتهم وأطفالهم . عرفت أني لن أحظى بأي من ذلك لأني أعرف أني لم أرغب به . لكن أكان معنى ذلك أني لن أحظى بشيء؟

كنتُ أول شخص في تاريخ المدرسة لا يرتاد الجامعة . بالطبع ، في الأقل ثلث زملائي لم ينهوا الجامعة قط . بحلول عام ١٩٦٨ ، كان الناس ينسحبون من الدراسة يوميًا .

بين الفينة والأخرى في وقتنا هذا ، يقول لي الناس حين أخبرهم بأني لم أرتد الجامعة : «أوه ، يا للروعة!» لم يكونوا ليحسبوه أمرًا رائعًا حينها . لم يروه كذلك ، زملائي من شاكلة الأشخاص الذين يخبرونني الآن ما أروعك . في عام ١٩٦٦ ، كنتُ منبوذة .

ما الذي كنتُ سأفعله؟ هذا ما سألني إياه قليلٌ من زملائي .

أخبرتُ شابًا قائلة : «سوف أنضمُّ إلى فيلق الجيش النسائي» .

«أحقًا؟ ستكون هذه مهنة مثيرة للاهتمام» .

قلتُ : «أنا أمزح فقط» .

«أوه ، آه ، أتعنين أنكِ لن تفعلي ، حقًّا؟» .

كنتُ مصدومة . من كانوا يحسَبونني؟

أنا متأكدة من أنَّهم لم يشغلوا بالهم بي ، فقد كنتُ تلك التي كانت ترتدي الملابس السوداء و -صدقًا ، سمعتُ ذلك من عدة أشخاص- التي نامت مع أستاذ اللغة الإنجليزية . كان جميعهم بائسين في السابعة عشرة من عمرهم ، مثلي تمامًا . لم يكن لديهم الوقت ليتساءلوا لم كنتُ بائسة أكثر بقليل من معظمهم .

الخواء والملل : ما أبخسه من وصف . ما شعرتُ به كان أسًى تامًّا . أسى ، يأس ، واكتئاب .

أما من طريقةٍ أخرى نحلِّل بها هذا الوضع؟ فبعد كل شيء ، القلق من هذه الأعراض يعد ضربًا من ضروب الرفاهية فعليك أن تكون شخصًا مُؤَمَّنٌ له الغذاء ، والملبس ، والمسكن ليتسنى لك الوقت لهذا القدر من الإشفاق على الذات . ثم نأتي إلى مسألة الجامعة : أراد والداي أن أذهب إليها ، لكنِّي لم أرغب بذلك ، ولم أذهب إليها . نلتُ مرادي . أولئك الذين لا يذهبون إلى الجامعة عليهم أن يحصلوا على أعمال . وافقتُ على كل ذلك . أخبرتُ نفسي بكل هذا مرارا وتكرارا . حتى أني حصلتُ على عمل- كان عملي كسر أطباق الغراتن .

لكنَّ حقيقة أني لم أكن قادرة على الحفاظ على عملي مقلقة . كنتُ في الأرجح مجنونة . أتجنب فكرة الجنون عام أو عامين ، وقد صرتُ الآن قريبة منها .

قلتُ لنفسي : تمالكي نفسكِ! كُفي عن تدليل نفسكِ . ما مِن خطبٍ فيكِ . أنتِ مشاكسة فحسب .

إحدى أعظم الملذات في الصحة العقلية (أيًّا كان ما يعنيه ذلك) هي مدى قلة الوقت الذي أمتلكه لأقضيه في التفكير بنفسي .

لدي عدة شروحات أخرى لتشخيصي .

«النساء هن أكثر من يشخص بهذا الاضطراب عادة» .

لاحظ صياغة تلك الجملة . لم يكتبوا «الاضطراب شائعٌ أكثر عند النساء» وحتى لو أنهم فعلوا ستظلُّ الجملة مثيرة للريبة ، ولكنهم حتى لم يكلِّفوا أنفسهم عناء إخفاء فعلتهم .

العديد من الاضطرابات ، اعتماداً على عدد من يقطنون في المستشفى ، يكثر تشخيصها في النساء . إليك على سبيل المثال «الانحلال القهري» .

كم عدد الفتيات ، في رأيك ، التي يجب على فتى في السابعة عشر من عمره أن يعاشرهن لينال مسمى «مُنحَلٌّ قهريًا»؟ ثلاث؟ لا ، هذا ليس كافيًا . ست؟ في ذلك شك . عشر؟ هذا يبدو مرجحًا أكثر . تخميني أنَّ

العدد سيكون في الأرجح بين الخمسة عشر إلى العشرين- هذا إن كان قد سبق لهم أن سمُّوا الفتيان بهذا المسمى ، وهو أمرٌ لا أذكر أنهم فعلوه .

ولفتاةٍ في السابعة عشر من عمرها ، كم عدد الفتيان؟

في قائمة الأعمال الستة التي «قد تضرُّ النَّفْس» والتي يفضِّلها اضطراب الشخصية الحدية ، ثلاثة منها ترتبط عادةً بالنساء (تبذير المال في التسوق ، وسرقة المعروضات ، ونهم الطعام) وواحدةٌ بالرجال (القيادة المتهورة) . وواحدة ليست «محددة الجنس» كما يقولون هذه الأيام (تناول المواد المؤثرة نفسيًّا) . وتعريف العمل الآخر (الجنس العَرَضِي) يكون بحسب ما يراه الشخص .

ثم مسألة «الموت المبكر» من الانتحار . لحسن الحظ أنِّي تجنبتُه ، لكني فكرتُ بالانتحار كثيراً . أفكر به وأجعل نفسي تحزن على موتي المبكر ، ثم أشعر بتحسن . فكرة الانتحار نجحت معي كأنها مُسَهِّل أو مُلَينٍّ للأمعاء . ولكن الأمر مختلف لبعض الناس- مثلاً ، ديزي . لكن أكان موتها «مبكِّرًا» حقًّا؟ أكان لزامًا عليها أن تجلس في مطبخها الذي بطاولة طعام مع دجاجها وغضبها خمسين سنة أخرى؟ أفترض بأنها لم تكن لتتغير ، وقد أكون مخطئة . مؤكدٌ أنَّها افترضت هذا ، وربما كانت أيضًا مخطئة . ولو أنَّها جلست هناك ثلاثين سنة فقط ، وقتلت نفسها في التاسعة والأربعين بدلا من التاسعة عشرة ، هل سيظل موتها «مبكِّرًا»؟

تحسَّنت حالتي في حين لم تتحسَّن حالة ديزي ولا يمكنني أن أشرح السبب . ربما كنتُ فقط أتغزَّل بالجنون مثلما أتغزَّل بمعلميَّ وزملائي . لم أقتنع بأني مجنونة ، مع أنِّي كنتُ أخشى بأني كذلك . يقول بعض الناس أن امتلاك أي رأي واعٍ حول المسألة هو علامة على سلامة العقل ، لكني لستُ متأكدة بأن هذا صحيح . ما زلتُ أفكر بالأمر . سأضطر دائمًا للتفكير بالأمر .

أنا غالبًا أسأل نفسي ما إذا كنتُ مجنونة . وأسأل الناس الآخرين أيضًا .

«هل هذا القول جنون؟» أسأل هذا السؤال قبل أن أقول شيئًا في الأرجح إنه ليس جنونًا .

أستهلُّ الكثير من الجمل بقولي : «ربما أنا مخبولةٌ تمامًا» أو «ربما أصبحتُ مجنونة» .

إن فعلتُ أمرًا غير اعتيادي –مثل أن أستحمَّ مرتين في اليوم الواحد– فإني أسأل نفسي : هل أنتِ مجنونة؟

إنها عبارة شائعة ، أعرف ذلك . لكنها تعني أمرًا محدَّدًا لي : الأنفاق ، الحواجز الأمنية ، الشوك البلاستيكية ، اللمعان ، الحدُّ دائمُ التغيير والذي مثل كل الحدود يستدعيك ويطلب منك أن تتخطاه . لا أريد أن أتخطاه مجدَّدًا أبدًا .

لاحـقًـا ، فـي الـمـسـتـقـبـل ، سـوف تـرافـقـيـنـنـي[12]

خرج معظمنا في النهاية . أنا وجورجينا بقينا على اتصال .

عاشت زمنًا في كميونة نسائية في شمال كامبريدج . زارتني في شقتي ذات يوم وأرعبت جارتي التي تسكن في الطابق العلوي حين كانت تعد الخبز .

قالت جورجينا : «إنَّكِ تُعدِّينه بطريقة خاطئة!» كنت معها احتسي كوبًا من الشاي في الطابق العلوي في حين جارتي تعجن العجينة .

قالت جورجينا : «اسمحي لي أن أريكِ» دفعتْ جارتي عن الطريق وشرعتْ ترمي بالعجينة على المنضدة .

جارتي امرأة لطيفة ولم تفعل قطُّ أي أمرٍ معيبٍ أو وقح ، لذلك عاملها معظم الناس باحترام .

«عليكِ أن تضربيه بقوة» قالتها جورجينا وهي تفعل ذلك .

قالت جارتي : «أوه» . تكبرني وجورجينا بعشر سنوات تقريبا ، وتُعِدُّ الخبز طوال تلك السنين .

بعدما ضربت الخبز ضربًا جيداً ، قالت جورجينا إن عليها المغادرة .

---

12 العنوان مقتبسٌ من كلمات أغنية Farther On Down The Road للمغني الأمريكي Taj Mahal (المترجمة)

قالت جارتي : «لم يعاملني أحدٌ بهذه الطريقة قط» بدت مذهولةً أكثر من غاضبة .

ثم انخرطت جورجينا مع جماعة توعية . ألحَّت عليَّ أن آتي . قالت : «سيعجبكِ الأمر» .

جعلتني النسوة أشعر بأني عديمة الأهلية . كُنَّ يُجِدن تفكيك محركات السيارات وتسلق الجبال . كنتُ المتزوجة الوحيدة بينهن . بوسعي ملاحظة أن جورجينا تتمتع بوجاهة معيَّنة بسبب جنونها ، بطريقة ما ، هذه الوجاهة لم تنطبق علي . لكنِّي زرتهنَّ كفايةً لأصبح مرتابة من الزواج ، ومن زوجي على وجه الخصوص . كنتُ أفتعل الشجار معه لأسبابٍ سخيفة . من الصعب إيجاد سبب نتشاجر حوله . كان قائمًا بالطبخ والتسوق ، وقائمًا بقدر كبير من التنظيف أيضًا . قضيتُ جُلَّ وقتي في القراءة والرسم بالألوان المائية .

لحسن الحظ ، حصلت جورجينا على زوج أيضًا وانسحبت من الجماعة قبل أن أتمكن من افتعال شجار مُدَمِّر جدًا .

ثم وجب علينا زيارة مزرعتهم في غرب ماساتشوستس .

كان زوج جورجينا شديد البياض وهزيلاً وغير ذي بال . لكنها حصلت أيضًا على ماعز . عاشت جورجينا ، والزوج ، والماعز في حظيرةٍ تقع فوق بضع فدادين من أرضٍ ذات أشجارٍ خفيضة على سفح جبلٍ صغير . اليومُ كان الذي زرناهما فيه باردًا ، معَ أننا في شهر أيار ، وكانا منشغلين

بتركيب الزجاج على نوافذهما . كانت إطارات نوافذهما ستة على ستة ، لذا فقد كان عملاً مضجراً جداً .

شاهدناهما وهما يعجنان ويُركِّبان . وقفت الماعز في حجرتها جانب الباب وشاهدت أيضًا . أخيرًا ، قالت جورجينا بأن وقت الغداء قد حان . حضَّرت حَلَّة ضغط مليئة بالبطاطا الحلوة . كان هذا الغداء . ثمة بعضٌ من شراب القيقب للإضافة . وتناولت الماعز موزا .

بعد الغداء ، قالت جورجينا : «أتريدين مشاهدة الماعز وهي ترقص؟» .

كان اسم الماعز دارلنغ . لونها زنجبيليّ ولها أذنان طويلتان مشعرتان .

رفعت جورجينا بطاطا حلوة عاليًا في الهواء . قالت : «ارقصي يا دارلنغ» .

وقفت الماعز على قائمتيها الخلفيَّتين ولاحقت البطاطا الحلوة التي ظلَّت جورجينا تُبعِدها عنها . تمايلت أذناها الطويلتان أثناء قفزها ، وضربت الهواء بقائمتيها الأماميتين . حوافرها سوداء وحادَّة ، بدت كما لو أن في مقدورها إلحاق الكثير من الضرر . طبعًا ، حين تعثَّرت ، وقد تعثَّرت عدة مرات ، وكشط حافرٌ حافة منضدة المطبخ ، خلَّف ذلك أخدوداً في الخشب .

قلتُ : «أعطيها إياها» إنَّ في منظر الماعز وهي ترقص شيئًا جعلني أرغب بالبكاء .

انتقلا غربًا إلى كولورادو ، حيث الأرض أفضل . اتصلت بي جورجينا مرة أو مرتين من تلفون عمومي . لم يكن لديهما هاتفٌ خاص بهما . لا أدري ما حلَّ بالماعز .

بعد بضع سنين من انتقال جورجينا إلى الغرب ، صادفتُ ليسا في ساحة هارفارد . برفقتها طفلٌ لون بشرته كلون الخبز المحمص ، سنُّه نحو ثلاث سنين .

ضممتُها ، وقلتُ : «ليسا ، أنا سعيدةٌ جداًّ برؤيتكِ» .

قالت : «هذا طفلي» وأردفت قائلةً وهي تضحك : «أوليسَ أمرًا جنونيًّا أنَّ لدي طفل؟ يا آرِن ، قُل مرحبًا» لم يَقُل مرحبًا بل وارى وجهه خلف ساقها .

بدت تمامًا كما عهدتُها : نحيلة ، مصفرَّة ، مبتهجة .

سألتُها : «ما الذي كنتِ تفعلينه؟» .

قالت : «الطفل . هذا كل ما يمكنكِ فعله» .

«ماذا عن والده؟» .

«وداعًا له . لقد تخلصتُ منه» ثُمَّ وضعت يدها على رأس الطفل وقالت : «نحن لا نحتاجه ، صحيح؟» .

«أين تعيشين؟» أردتُ أن أعرف كل شيء عنها .

«لن تصدِّقي ما سأقوله» أخرجت ليسا سيجارة من ماركة كول وأشعلتها . «أعيشُ في بروكلين ، حيث أعمل رئيسة ممرضات في ضاحية من ضواحي بروكلين . معي الطفل ، أصطحب الطفل إلى الحضانة ، أمتلك شقة ، وأمتلك الأثاث . وفي أيَّام الجُمَع نذهب إلى الكنيس» .

«الكنيس!» أذهلني ذلك . «لماذا؟» .

تلعثمت ليسا قائلة : «أريد-» لم أشهدها قطُّ بهذا العجز عن التعبير . «أريدنا أن نكون عائلة حقيقية ، عائلة تمتلك أثاثًا وما إلى ذلك . أريده أن يحظى بحياةٍ حقيقية . والكنيسُ يفيد في ذلك . لا أدري لماذا ، لكنه يفيد» .

حدَّقتُ إلى ليسا ، محاوِلةً تخيُّلها في الكنيس مع ابنها الأسمر . لاحظتُ بأنها ترتدي بعض المجوهرات- خاتمٌ بياقوتتين زرقاوتين ، وسلسلةٌ من ذهب حول عنقها .

سألتُها : «ما حكاية المجوهرات؟» .

«هدايا من الجدَّة ، صحيح؟» وجَّهت كلامها هذا للطفل ، ثم أخبرتني قائلة : «كل شيء يتغيَّر حين تَلِدين أطفالاً» .

لم أعلم ماذا أقول ردًا على ذلك . كنتُ قد قررتُ ألا أحظى بأي أطفال . ولم يبدُ بأنَّ زواجي كان سيستمر أيضًا .

كنا واقفين في وسط ساحة هارفارد أمام مدخل قطار الأنفاق . فجأةً ، مالت ليسا بقربي ، وقالت : «أترغبين برؤية شيء بديع؟» لصوتها رعشة الشقاوة القديمة ذاتها . أومأتُ برأسي .

رفعت قميصها ، الذي كان تي شيرت يروِّج لمحل يبيع كعك البيغل في بروكلين ، وأمسكت بلحم بطنها ، ثم سحبته ، كان جلدها مثل الأكورديون ، ظلَّ يتمدَّد ، أكثر فأكثر ، حتى أصبحت ممسكة بسديلة الجلد على بُعد قدم من جسدها . أفلتت يدها فأخذ يتقلَّص ، كان مجعداً في البدء لكنه استقرَّ بعدها في عظامها ، ومظهره يبدو طبيعيًّا جداً .

قلتُ : «واو!» .

قالت ليسا : «الأطفال» وأردفت تقول ضاحكة : «هذا ما يفعله بكِ إنجابهم . قُل وداعًا يا آرِن» .

قال : «وداعًا» ممَّا فاجأني .

كانا عائدَين إلى بروكلين عبر قطار الأنفاق . على قمة السُّلَّم التفتت ليسا نحوي مجدَّداً .

سألتني قائلة : «أتفكرين بتلك الأيام هناك ، في ذلك المكان؟» .

أجبتُها قائلة : «نعم ، أفكر بها» .

هزَّت رأسها وقالت : «أنا أيضًا» ثم أردفت تقول بنبرةٍ مَرِحة : «أيًّا يكن» ثُمَّ نزل كلاهما السُّلَّم ، نحو الأنفاق .

لوحة فيرمير في متحف فريك لوحةٌ من أصل ثلاث لوحات ، لكنِّي لم ألحظ اللوحتين الأخريين في المرة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى هناك . كنتُ في السابعة عشر وفي نيويورك مع أستاذي ، أستاذ اللغة الإنجليزية ، الذي لم يقبِّلني بعد . أفكر بتلك القبلة المستقبلية ، وأعرف بأنها ستحدث ، أثناء مغادرتي للوحات فراغونارد وسيري نحو الممر المؤدي للفِناء- ذلك الممر المعتم حيث لمعت لوحات فيرمير على الجدار .

بجانب القبلة ، فكرتُ في ما إذا كنتُ قادرة على التخرج في الثانوية في حال رسبتُ في الأحياء للسنة الثانية على التوالي . تفاجأتُ أني رسبتُ فيها ، لأني كنتُ أحبها ، أحببتُها في أول مرة رسبتُ فيها أيضًا . وجزئي المفضل هو جدول الجينات المتنحية . أحببتُ فهم طريقة تسلسل العيون الزرقاء في عائلات لا تمتلك صفات سوى العيون الزرقاء والعيون البنية . كان لعائلتي الكثير من الصفات -والمنجزات ، والطموحات ، والمواهب ، والتوقعات- التي بدت كلها متنحية فيَّ .

مررتُ بالآنسة التي ترتدي المبذل الأصفر والخادمة التي جلبت لها رسالة ، بالجندي الذي يعتمر قبعة بديعة والفتاة المبتسمة له ، وأنا أفكر بالشفاه الدافئة ، والعيون البنية ، والعيون الزرقاء . استوقفتني عيناها البنيتان .

إنها اللوحة التي تُطِلُّ فتاةٌ من إطارها، متجاهلةً معلمها، معلِّم الموسيقى البدين، الذي تستند يده المُتَمَلِّكة على كرسيها. الضوء خفيف، ضوء الشتاء، لكن وجهها مشرق.

أمعنتُ النظر في عينيها البنيتين وجفلتُ. كانت تحذرني من أمر ما -رفعت عينيها من عملها لتحذرني. كان فمها مفتوحًا قليلاً، كأنها استنشقت لتوها نفسًا لتقول لي: «لا تفعلي!».

تراجعتُ، محاولةً تجنُّب نطاق إلحاحها. لكن إلحاحها ملأ الممر. كانت تقول: «مهلاً، مهلاً! لا تذهبي!».

لم أنصت لها. خرجتُ لتناول العشاء مع معلِّمي، معلِّم اللغة الإنجليزية، وقبَّلني، وعدتُ إلى كامبريدج ورسبتُ في مادة الأحياء، مع أني تخرجتُ، وفي النهاية، أصبحتُ مجنونة.

بعد ستة عشر عاما كنتُ في نيويورك مع حبيبي الثري الجديد. سافرنا في رحلات كثيرة، على نفقته، ولو أن إنفاق الأموال كان يجعله سريع الانزعاج. في رحلاتنا، غالبًا ما هاجم شخصيتي- تلك الشخصية التي شُخِّصَت ذات مرة بأنها مضطربة. في بعض الأحيان كنتُ عاطفيَّة بإفراط، وفي أحيان أخرى لا مبالية بإفراط وانتقاديَّة. أيًا كان الشيء الذي قاله، كنتُ أطمئنه بإخباره أن لا بأس بإنفاق الأموال. فيتوقف عن مهاجمتي، الأمر الذي عنى أنه بوسعنا أن نبقى معًا ونبدأ في دورة الإنفاق والهجوم في رحلةٍ مستقبلية.

كان يومًا أكتوبريًا جميلاً في نيويورك . هو هاجم وأنا طمأنتُ والآن نحن مستعدان للخروج .

قال : «لنذهب إلى متحف فريك» .

قلتُ : «لم أذهب إلى هناك قط» ثم خطر ببالي أني ربما فعلتُ . لم أقل شيئًا فقد تعلمتُ ألا أناقش شكوكي .

حين وصلنا إلى هناك عرفتُه . قلتُ : «أوه ، توجد لوحةٌ أحبها هنا» .

قال : «لوحةٌ واحدةٌ فقط؟ انظري إلى لوحات فراغونارد هذه» .

لم تعجبني . تركتُ لوحات فراغونارد ورائي وسرتُ نحو الممر المؤدي للفِناء .

تغيَّرتْ كثيرًا في غضون الست عشرة سنة . لم تَعُد مُلِحَّة . في الواقع ، حزينة . يافعة وشاردة الذهن ، وكان معلِّمُها يدنو منها ، محاولاً لفت انتباهها . لكنها تنظر نحو الخارج ، تبحث عن شخص بوسعه رؤيتها .

هذه المرة قرأتُ عنوان اللوحة : فتاةٌ قُوطِعَت أثناء درس الموسيقى .

قُوطِعَت أثناء درس الموسيقى : مثل حياتي التي قُوطِعَت أثناء موسيقى عامي السابع عشر ، مثل حياتها التي سُلبت وثُبتت على قماشة رسم : لحظةٌ واحدةٌ خُلِقَت لتظلَّ مكانها وتكون رمزًا لكل اللحظات الأخرى ، أيًا ما كانت تلك اللحظات أو ما ستكونه . أيُّ حياةٍ يمكنها أن تتعافى من ذلك؟

أصبح لدي شيءٌ أقوله لها الآن . قلتُ : «أنا أراكِ» .

وجدني حبيبي أبكي في الممر .

سألني قائلاً : «ما خطبكِ؟» .

قلتُ مُشيرةً إليها : «ألا ترى ، إنها تحاول الخروج» .

نظر إلى اللوحة ، ثُمَّ نظر إلي ، وقال : «أنتِ لا تفكرين أبداً سوى بنفسكِ . أنتِ لا تفقهين شيئًا في الفن» ثُمَّ ذهب لينظر إلى لوحة من لوحات رامبرانت .

عدتُ إلى متحف فريك منذ ذلك الحين لأنظر إليها وإلى لوحتي فيرمير الأخريين . فلوحات فيرمير ، بعد كل شيء ، يصعب إيجادها ، واللوحة التي في بوسطن قد سُرِقت .

اللوحتان الأخريان لوحتان متكاملتان بذاتيهما . الأشخاص فيهما ينظرون لبعضهم- الآنسة وخادمتها ، الجنديُّ وعشيقته . النظر إليهم مثل اختلاس النظر إليهم عبر ثقب في جدار . والجدار مصنوع من الضوء- ذلك الضوء الفيرميريُّ القابل للتصديق تماماً والذي ، مع ذلك ، لا وجود له .

لا وجود لضوءٍ كهذا ، ولكننا نتمنى لو أنه وُجِد . نتمنى لو كان بوسع الشمس أن تجعلنا شُبَّانًا وجميلين ، نتمنى لو كان بوسع ثيابنا أن تلمع وتتموج على جلودنا ، والأهم من ذلك ، نتمنى لو كان بوسع كل من

نعرفه أن يكون مبتهجًا بمجرد نظرنا له فقط ، كحال الخادمة التي تحمل الرسالة ، والجندي الذي يعتمر القبعة .

تقعد الفتاة أثناء درس الموسيقى محاطة بنوع مختلف من الضوء ، ضوء الحياة المُتَقطِّع المُلَبَّد بالغيوم ، الذي نبصر به أنفسنا والآخرين على نحو غير مثالي وغير شائع فحسب .